مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

سوسيولوجيا الأفكار وعلاقتها بالعقيدة الإسلامية(*)

د/ أحلام حسن محمد عسيري
دكتوراه بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد - السعودية

الباحثة/ أفنان سعد سعيد السرحاني
ماجستير عقيدة بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد - السعودية

*) تاريخ تسليم البحث 25/8/2025 تاريخ قبوله للنشر 8/10/2025
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

سوسيولوجيا الأفكار وعلاقتها بالعقيدة الإسلامية

د/ أحلام حسن محمد عسيري
دكتوراه بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد - السعودية
الباحثة/ أفنان سعد سعيد السرحاني
ماجستير عقيدة بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد - السعودية

الملخص

يبين هذا البحث مدى تأثير المؤثرات الاجتماعية والسياسية وغيرها من نظريات علم الاجتماع على الأفكار العقدية، حيث كان من المهم البحث في علم الاجتماع العقدي؛ لما لعلم الاجتماع من أهمية في دراسة حصاد تفاعل العلاقات بين الإنسان والمجتمع، والاقتصاد والسياسة، والدين وعلم النفس وغيرها، ولا تغني دراسات علم الاجتماع عن باقي العلوم، بل هي تفيد منها، وتعمق من نتائجها؛ مما يساعد في النهاية على إقامة وحدة فكرية شاملة حول الإنسان والمجتمع ماضيًا، وحاضرًا، وتوجهًا نحو مستقبل مقصود ومرغوب فيه، فالواقع الاجتماعي له تأثيره الكبير على المجتمعات، وعلى الأديان والعقائد أيضًا، ولذلك جاءت هذا البحث لتحقيق أهداف منها: إظهار علاقة علم الاجتماع بعلم العقيدة، وأهمية الدراسات البينية في المجال العقدي، مع بيان إبراز التأثر والتأثير بين نظريات علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية، وذلك من خلال استخدام بعض المناهج البحثية التي يتطلبها الموضوع، مثل: المنهج الوصفي والتحليلي، حتى تم الوصول إلى بعض النتائج منها: أن الأفكار هي التي تكوّن المجتمعات، وتجعلها متمايزة عن غيرها، وتجعل لكل مجتمع مقدسات مختلفة عن غيره من المجتمعات، والعقيدة الإسلامية تأتي لضبط الأفكار الاجتماعية وتنقيحها، وإبراز العلاقة المتينة بين العقيدة الإسلامية والأفكار الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: سوسيولوجيا، الأفكار، العقيدة الإسلامية.

Sociology of Ideas and Its Relation to Islamic Creed

Ahlam Hassan Mohammed Asiri
Ph.D. in Creed and Contemporary Doctrines
College of Sharia and Fundamentals of Religion
King Khalid University, Kingdom of Saudi Arabia

Afnan Saad Saeed Al-Sarhani
Master's Degree in Creed, Department of Creed and Contemporary Doctrines, College of Sharia and Fundamentals of Religion,
King Khalid University, Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

This study demonstrates the extent to which social, political, and other influences affect Islamic creed and its ideas, drawing upon the theories of sociology of knowledge. Since one of the main focuses of sociology of knowledge is to examine the impact of social factors on ideas and beliefs, this makes it highly relevant. Sociology of knowledge investigates the interactions between humans, society, economy, politics, psychology, and other sciences. It does not exclude sociology from the rest of the sciences; rather, it provides a comprehensive framework for examining their outcomes. Ultimately, it contributes to the establishment of an integrated intellectual system regarding humanity and society, past and present, and directs them toward an intended future. As Al-Rouqi emphasizes, "social reality greatly influences societies, religions, and beliefs as well

Keywords: Sociology, Ideas, Islamic Creed.

مقدمة البحث:

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

تعتبر العقيدة الإسلامية ومسائلها الإجمالية والتفصيلية من أهم العلوم التي تبني الفرد والمجتمع حتى يقوم على أساس متين من التوحيد لله، والحماية من الانحرافات الفكرية، ولذلك هي تُحدث توازناً بين الروح والجسد، وبين الفرد والمجتمع وغيرها كما أنها تتناسب مع المجتمعات في كل زمان ومكان، ومن الناحية الأخرى يعتبر علم الاجتماع من أهم العلوم التي تدرس المجتمع الإنساني بنظرة شمولية بقصد بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال واحدة بعد الأخرى، ويعدّ ابن خلدون هو أول من نادى بضرورة إنشاء علم "العمران البشري"، وهذا العمران يعني لديه: الاجتماع الإنساني وظاهراته، حيث يقر ابن خلدون أن: أحوال الأمم وعوائدها ونحلها لا تدوم على وتيرة واحدة، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، ولوجود هذا التغير والتبدل في المجتمعات، وكذلك لوجود العديد من نظريات علم الاجتماع التي تفسر الظواهر الإنسانية والسياسية، وتبيّن مدى تأثيرها على العقائد والعلماء **كالنظرية الوظيفية، ونظرية الصراع، والنظرية التفاعلية الرمزية، ونظرية التبادل الاجتماعي،** وغيرها؛ فكان من المهم دراسة تأثير المجتمع على العقائد والأديان، وبيان مدى علاقة التأثر والتأثير بينها، ولتقديم تصور معرفي شامل للمؤثرات على العقيدة الإسلامية، ولذا سيتناول البحث –بإذن الله تعالى– دراسة العلاقة بين علم العقيدة وعلم الاجتماع، والتأثير الناتج من الظروف الاجتماعية على المسائل العقدية.

إشكالية البحث، وتساؤلاته:

تتمثل إشكالية هذا البحث في محاولة الكشف عن طبيعة العلاقة بين علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية، من حيث الأسس الفكرية والمنهجية التي يقوم عليها كل منهما، ومدى إمكانية التلاقي بينهما في تفسير الظواهر الاجتماعية وتوجيه السلوك الإنساني. إذ يعتمد علم الاجتماع في مناهجه على الأسس الوضعية والتجريبية، بينما تستند العقيدة الإسلامية إلى الوحي الإلهي كمصدر للمعرفة، ومن هنا يثور التساؤل الرئيس: ما العلاقة بين علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية؟ ويتفرع عنه عدد من التساؤلات الفرعية، مثل:

- ماهي سوسيولوجيا الأفكار؟
- وكيف يمكن توظيف العقيدة الإسلامية في تقويم الدراسات الاجتماعية وتوجيهها؟
- وهل يمكن للنظريات الاجتماعية التأثير على العقيدة الإسلامية؟

أهداف البحث:

١– إظهار علاقة علم الاجتماع بعلم العقيدة، وإبراز التأثر والتأثير بين نظريات علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية.

٢– بيان مفهوم سوسيولوجيا الأفكار وصلته بالمجتمع الإنساني.

٣– توضيح الأسس العقدية التي يقوم عليها التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع.

أهمية الموضوع:

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يســـعى إلى الربط بين ميدانين معرفيين متمايزين ظاهريًا، هما: علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية، من أجل بناء رؤية متكاملة لفهم الإنسان والمجتمع في ضوء الإيمان بالله ووحدانيته.

وتبرز أهمية البحث فيما يلي:

١- محاولة تأصيل المفاهيم الاجتماعية تأصيلًا عقديًا ينطلق من الوحي بدلاً من المرجعيات الوضعية.

٢- بيان أثر العقيدة الإسلامية في توجيه الدراسات الاجتماعية وضبطها بمنظور قيمي وأخلاقي.

٣- الإسهام في إثراء الدراسات التكاملية بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية.

٤- إبراز دور العقيدة الإسلامية في بناء مجتمع متماسك قائم على الإيمان والتعاون والعدل.

أسباب اختيار الموضوع:

١- قلة الدراسات التي تناولت العلاقة بين علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية تناولًا تحليليًا وتأصيليًا.

٢- الحاجة إلى تقديم رؤية إسلامية للعلوم الاجتماعية تُعيد التوازن بين العلم والإيمان.

٣- انتشار النظريات الاجتماعية الغربية التي تتعارض في بعض منطلقاتها مع الأسس العقدية الإسلامية.

٤- الرغبة في إبراز قدرة العقيدة الإسلامية على تقديم نموذج معرفي شامل لفهم الظواهر الاجتماعية..

الدراسات السابقة:

تناولت بعض الدراسات العلاقة بين العلوم الاجتماعية والرؤية الإسلامية من زوايا متعددة، ومن أبرزها:

١- دراسات تناولت نقد علم الاجتماع الغربي من منظور إسلامي، فركّزت على بيان الأسس الوضعية التي يقوم عليها، التي أوضحت تأثر علم الاجتماع بالمناهج المادية الغربية، وأشارت إلى غياب البعد الإيماني في تفسير الظواهر الاجتماعية.

٢- دراسات تناولت مفهوم علم الاجتماع الإسلامي، سعت إلى تأصيل فكرة علم اجتماع منبثق من التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع..

٣- دراسات تناولت البعد العقدي في الفكر الاجتماعي الإسلامي، حيث ناقشت كيف تؤثر العقيدة الإسلامية في بناء المجتمع المسلم وتماسكه، مثل:

بحث "نظريات علم الاجتماع دراسة عقدية نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية، الباحثة: مرام بنت حسن الحمدي، رسالة ماجستير قدمت في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام ١٤٤٠هـ" يتناول هذا البحث دراسة نقدية لعلاقة نظريات علم الاجتماع بالعقيدة الإسلامية، من خلال تحليل الأسس الفلسفية والفكرية التي تقوم عليها هذه النظريات، ومقارنتها بالتصور الإسلامي للإنسان والمجتمع، وتنطلق الباحثة من أن علم الاجتماع الغربي نشأ في بيئة فكرية علمانية متأثرة بمذاهب مادية ووضعية تُقصي الدين عن تفسير الظواهر الاجتماعية، بينما

تؤكد العقيدة الإسلامية أن الإنسان مخلوق مكرم، تحكمه علاقة عبودية لله تعالى، وأن المجتمع يقوم على قيم الإيمان والتكافل والعدل.

ورغم القيمة العلمية لهذه الدراسات، إلا أن معظمها ركّز على الجانب النقدي أو التأصيلي المنفصل، دون تقديم رؤية تكاملية مباشرة تُبيّن طبيعة العلاقة العلمية والمنهجية بين علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية في سياقٍ واحدٍ شامل.

والفرق بين هذا البحث وغيره: أنه يتّسم هذا البحث بأنه محاولةً جديدة لتوضيح العلاقة القوية بين الدراسات العقدية والاجتماعية من خلال معالجة هذه العلاقة معالجةً تحليليةً ومقارنةً تكشف عن نقاط الالتقاء والتكامل بينهما، كما يسعى البحث إلى تأصيل العلاقة من منظور عقدي منهجي، يوضح كيف يمكن للعقيدة الإسلامية أن تُسهم في إعادة بناء التصورات الاجتماعية على أسس إيمانية، بعيدًا عن الفجوة التي أوجدتها المناهج الوضعية الحديثة.

وبذلك يتميّز هذا البحث عن غيره بكونه يجمع بين إبراز نقاط التأثر والتأثير بين العقيدة الإسلامية وعلم الاجتماع في إطار واحد متكامل.

حدود البحث:

الحدود الموضوعية: يقتصر البحث على دراسة العلاقة بين علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية من حيث الأسس الفكرية والمنهجية والتطبيقية، دون التوسع في التفصيلات الجزئية للمدارس الاجتماعية أو المذاهب العقدية.

الحدود الزمانية: يتناول البحث أبرز الاتجاهات المعاصرة في علم الاجتماع، مع الإشارة إلى التطورات الحديثة ذات الصلة.

الحدود المكانية: لا يختص البحث بدراسة مجتمع معين، بل يهدف إلى بيان العلاقة العامة بين علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية في الإطار النظري والمفاهيمي.

الحدود البشرية: يتناول البحث إيضاحات العلماء والمفكرين المسلمين الذين سعوا إلى تأسيس أو تقويم علم الاجتماع في ضوء العقيدة الإسلامية.

منهج البحث:

سيتبع هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على جمع المعلومات المتعلقة بعلم الاجتماع والعقيدة الإسلامية، وتحليلها ومقارنتها للكشف عن نقاط الالتقاء والاختلاف بينهما، كما يعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي في تتبع النصوص الشرعية والكتابات العلمية ذات الصلة؛ لاستخلاص المفاهيم العقدية والاجتماعية وتحليلها في ضوء الرؤية الإسلامية، ويُستخدم كذلك المنهج المقارن لمقارنة الأسس المعرفية والمنهجية لعلم الاجتماع الوضعي مع التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع، بهدف الوصول إلى تصور متكامل ينسجم مع العقيدة الإسلامية.

تبويب البحث:

يتكون البحث من: مقدمة، ومبحثين، وستة مطالب، وخاتمة.

المقدمة، وتتضمن: مشكلة البحث، وأسئلته المركزية، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، وحدود البحث، ومنهجها، والدراسات السابقة، وتبويب البحث.

المبحث الأول: سوسيولوجيا الأفكار، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم السوسيولوجيا.

المطلب الثاني: بداية ظهور السوسيولوجيا.

المطلب الثالث: مفهوم سوسيولوجيا الأفكار.

المبحث الثاني: علم الاجتماع وعلاقته بعلم العقيدة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الدين.

المطلب الثاني: تعريف علم الاجتماع الديني.

المطلب الثالث: علاقة علم الاجتماع بالعقيدة.

الخاتمة: وتتضمن نتائج البحث، والتوصيات.

المبحث الأول: سوسيولوجيا الأفكار

المطلب الأول: مفهوم السوسيولوجيا:

السوسيولوجيا Sociologi هي كلمة لاتينية مشتقة من كلمتين: الكلمة الأولى هي: Logos وتعني: العلم، والثانية هي: Societas وتعني: المجتمعات، أو الجماعات(١)، فيراد بمصطلح السوسيولوجيا Sociologie: علم الاجتماع.

و"الاجتماع لغة: ضد الافتراق"(٢)، كما قال ابن سينا: "الاجتماع هو وجود أشياء كثيرة يعمها معنى واحد، والافتراق مقابله"(٣).

وعرَّف دوركايم(٤) علم الاجتماع بأنه: العلم الذي يهتم بدراسة البناء الاجتماعي وما به من مؤسسات؛ من حيث مقوماتها، ووظائفها(٥)، وأوضح دوركايم أن مهمة علم الاجتماع هي دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية، والكشف عن العلاقة بين هذه الظواهر(٦)، والظواهر الاجتماعية –التي ذكرها– هي: ظواهر إنسانية تنشأ بنشأة المجتمع، وهي عبارة عن قوالب للتفكير والعمل الإنساني، ولها وجود منفصل عن الأفراد الممارسين لها، وليست من صنع الفرد، بل من صنع المجتمع ككل، وعرفها دوركايم بأنها: "كل ضرب من السلوك ثابتًا كان أم غير ثابت، يمكن أن يباشر نوعًا من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية"(٧)، والظواهر الاجتماعية عنده هي "المادة الوحيدة التي يمكن اتخاذها موضوعًا لعلم الاجتماع"(٨).

فعلم الاجتماع أو السوسيولوجيا يراد بها: "الدراسة المنهجية، أو المخططة والمنظمة للجماعات البشرية والحياة الاجتماعية في المجتمعات"(٩)، فالسوسيولوجيا تهتم في المقام الأول بالعلاقات والارتباطات، أي: أننا نولد في مجتمع نحن أعضاء فيه، وهو موجود قبل وجودنا، وأن الإنسان يتشكل في تلك العلاقات الإنسانية، وتجاربه تتأثر بالأبنية الاجتماعية، وأفكاره تتأثر بالأطر المرجعية الثقافية، وهو بالضرورة معتمد على غيره، كما أن غيره معتمد عليه،

---

(١) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ٣٨/١، وموسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ٦٩٠/٢، و١٠١٤/٢.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٣٨.

(٣) الحدود، لابن سينا، ص٢٥٩.

(٤) دوركايم هو: هو أحد أبرز مؤسسي علم الاجتماع (١٨٥٨–١٩١٧م)، وقد أنشأ أول قسم في أوروبا لعلم الاجتماع، وكان أول أستاذ لعلم الاجتماع في فرنسا، وواضع بعض نظريات علم الاجتماع. وستأتي ترجمته، ينظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي٣١٤/٢.

(٥) ينظر: قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوركايم، ص٩٠.

(٦) ينظر: قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوركايم، ص٩٧.

(٧) قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوركايم، ص ٦٨ – ٦٩.

(٨) قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوركايم، ص٩٠.

(٩) مقدمة إلى علم الاجتماع، كين براون، ص٨.

ورؤيته لنفسه ومجتمعه تتحدد في تلك العلاقات، فالسوسيولوجيا تهتم بدراسة المؤسسات الاجتماعية التي هي عبارة عن الأنساق الاجتماعية المنظمة المختلفة الموجودة في جميع المجتمعات، وتشكل هذه المؤسسات البنية الاجتماعية للمجتمع، أو الركائز الأساسية فيه، فعلم الاجتماع يحاول فهم هذه المؤسسات، وكيفية عملها، وتأثيرها على بعضها البعض(١)، فيبحث في الظواهر الاجتماعية من جهة خضوعها لقوانين طبيعية كغيرها من الظواهر الحيوية أو المادية، ويتضمن كذلك التأكيد على أن للجماعات الإنسانية طبائع خاصة لا تنحل إلى الطبائع التي يبحث فيها علم النفس، أو علم الحياة(٢).

فعلم الاجتماع يدرس المجتمع وهو عبارة عن: "جماعة كبيرة من الأشخاص المنخرطين بعضهم مع بعض، ويتشاركون العيش عمومًا في البقعة الجغرافية نفسها أو البلد، ويتشابهون في أسلوب الحياة، واللغة، والمعتقدات الشخصية"(٣)، وكذلك يدرس المؤسسات الاجتماعية التي هي: عبارة عن الأنساق الاجتماعية المختلفة الموجودة في جميع المجتمعات(٤)، وبذلك فعلم الاجتماع على ارتباط وثيق بمؤسسات المجتمع؛ حيث يهتم بدراسة البناء الاجتماعي وما به من مؤسسات؛ من حيث مقوماتها، ووظائفها، فهو يهتم بدراسة المؤسسات الاجتماعية أولًا التي يتكون منها المجتمع، مثل: مؤسسة الأسرة، والفرد كجزء منها، وعلاقته بالمجتمع والبيئة الحاضنة، وتأثيرها عليه فكرًا وسلوكًا وغيرهما، وكذلك المؤسسة التعليمية، وهي المؤسسة المسؤولة عن تحديد الأساليب التي يمكن من خلالها نقل المعلومات والمعارف للأبناء، وهي المسؤولة عن تنمية المهارات والقدرات التي يحتاجها الأفراد لسد احتياجات المجتمع، وعلاقتها بالمجتمع تأثرًا وتأثيرًا، ويهتم بدراسة المؤسسة الاقتصادية التي تتولى مسؤولية تنظيم عملية الإنتاج والاستهلاك والتوزيع بين أفراد المجتمع، وتأثيرها على المجتمع سلبًا وإيجابًا، وكذلك يهتم بالمؤسسة الدينية التي تتولى مسؤولية تنظيم العلاقة بين الأفراد والقوى الغيبية، ودورها الاجتماعي في غرس القيم والأخلاق النبيلة في المجتمع، وتنظيم العلاقة بين الأفراد والمجتمعات.

وأخيرًا فإن علم الاجتماع هو: علم دراسة المجتمع الإنساني وظواهره والمؤسسات الاجتماعية فيه دراسة علمية شاملة للأنساق الاجتماعية، معتمدة على المنهج العلمي، وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث. وهذا التعريف يعد حصاد تطورات علم الاجتماع(٥).

وبذلك يتبين لنا أن اهتمام علم الاجتماع الأساسي ينصب على البناء الاجتماعي ككل، وما يحويه هذا البناء من مكونات، وما يحدث بينها من علاقات وتناقضات، وما يطرأ على هذا البناء نفسه من تطورات وتغيرات، فهو وحدة فكرية شاملة حول الإنسان والمجتمع ماضيًا، وحاضرًا، ومستقبلًا، مع التسليم بوجود تباينات كثيرة ارتبطت

(١) ينظر: مقدمة إلى علم الاجتماع، كين براون، ص١٤.

(٢) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ٣٨/١.

(٣) ينظر: مقدمة إلى علم الاجتماع، كين براون، ص٨.

(٤) ينظر: مقدمة إلى علم الاجتماع، كين براون، ص٨.

(٥) ينظر: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عبد الباسط عبد المعطي، ص١٥.

بتحديد العلم وموضـــوعه، فهي اختلافات فرضـــتها طبيعة العلم في نشـــأته وتطوره؛ حيث تأثر علم الاجتماع بالاختلافات المجتمعية والفكرية، وبالظروف الاجتماعية والثقافية التي أحاطت بكل عالم من علماء الاجتماع، وجعلته يرتبط في خبرته بمجتمع دون غيره، كما تأثر بطبيعة التغيرات التي حدثت وما تزال تؤثر على المجتمع الإنســـاني، وكذلك تأثر باختلاف المنهج العلمي في كل فترة من الفترات التاريخية التي مر بها هذا العلم، وهذه المؤثرات لم يكن تأثيرها على علم الاجتماع وحده، بل على سائر العلوم الإنسانية، أو حتى الطبيعية.

ومما يميز الســـيســـيولوجيا أنها تتمتع بخصـــائص مميزة في المجال الاجتماعي على نحو مختلف عن الحقول المعرفية الأخرى المرتبطة بعلم الاجتماع، ومن الحقول المعرفية ذات الصـــلة: التاريخ، والأنثربولوجيا، وعلم النفس، والعلوم السياسية، والقانون، والسياسة الاجتماعية، والسكيولوجيا، ودراسات الإدارة والتنظيم، والاقتصاد، والتعليم، وعلم الجريمة، والفلسـفة، والجغرافيا، والأدب واللغويات، والصـحافة وعلوم المعلومات، وغيرها، وتهتم هذه الحقول المعرفية جميعها بالعالم البشـــري، أي: التفاعلات بين الناس وبيئاتهم التي يكونون جزءًا منها، فكل حقل من هذه الحقول مختلف عن غيره، فمن الفروق بين علم الاجتماع وعلم النفس أن علم النفس يركز على ســـلوكيات الأفراد، وبماذا يفكرون؟، وكيف يتصـــرفون؟، ولماذا يتصـــرفون كما يتصـــرفون؟، أما علم التاريخ فيهتم بالأحداث التي وقعت في الماضي، بخلاف العلوم السياسية التي تهتم بمؤسسات السلطة والدولة والحكم، وكذلك بخلاف الاقتصاد الذي يهتم بالموارد وصرفها، والقانون الذي يهتم بوضع القواعد والقوانين والعقوبات وتطبيقها إلى غير ذلك، أما علم الاجتماع فيركز بشـكل أكبر على الجماعات الاجتماعية، والمجتمعات والمنظمات والمؤسـسـات الاجتماعية، وتشـكيل بنية المجتمع الاجتماعية، وجميع هذه الحقول لا تنفك عن المجتمع، فكان علم الاجتماع متميزًا عنها، ولكنه مرتبط بها أيضًا، ومن ارتباطه بها كان علم الاجتماع السياسي، وعلم الاجتماع الاقتصادي، وعلم الاجتماع النفسي، وعلم الاجتماع الديني، وعلم الاجتماع المعرفي، وغيرها.

فمما يميز علم الاجتماع عن هذه الحقول أنه متخصـــص في الظواهر الاجتماعية دون الظواهر الأخرى، كالظواهر النفسية وغيرها، وقد قام دوركايم في كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع بإبراز هذا العلم، وتمييزه عن مواضـيع العلـوم الأخـرى، وحدد خصائص الظاهرة الاجتماعية عن غيرها من الظواهر، فيقول: "إن الظاهـــرة الاجتماعية هي: كل ضرب من السلوك ثابتًا كان أم غير ثابت، يمكن أن يباشر نوعًا من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل في الحالات الفردية"(١)، فحدد خصائص الظواهر الاجتماعية، وحددها بأنها ظواهر تعم المجتمع وغير مختصة بالأفراد، وحصرها في ضروب السلوك والتفكير، التي يمكن تمييزها عن غيرها بأنها تستطيع التأثير في شعور الأفراد تأثيرًا قهريًّا.

(١) قواعد المنهج في علم الاجتماع، إميل دوركايم، ص٢٦.

ومما يميز علم الاجتماع أيضًا عن غيره من العلوم الإنسانية أنه إذا كان كل علم من العلوم الإنسانية يدرس جانبًا أو أكثر من جوانب الإنسان، فإن علم الاجتماع يدرس المجتمع الإنساني ككل في ثباته وتغيره، ويدرس علاقة الإنسان بالمجتمع، وعلاقة المجتمع به، وأثره عليه، أي: أنه أكثر شمولًا من أيٍّ من العلوم الإنسانية؛ حيث يدرس كل علم من العلوم الإنسانية جانبًا من الإنسان والمجتمع، كالاقتصاد وعلم النفس ... الخ. أما علم الاجتماع فيدرس حصاد تفاعل العلاقات بين هذه الجوانب من ناحية، وبينها وبين الإنسان من ناحية ثانية، وهو كذلك أكثر تصورًا للواقع، وأكثر دقة في معرفة مكونات المجتمع الواقعية بتناقضاتها وتغيراتها، كما يتناول مشكلات المجتمع بمنظور علمي مع التخطيط لعلاجها بواقعية، سواء كانت هذه المشكلات فئوية، أو مجتمعية شاملة تشمل المجتمع على وجه العموم، وإذا كانت دراسات العلوم الأخرى لا تغني عن دراسات علم الاجتماع، بل تفيد منها، فبالقدر نفسه لا تغني دراسات علم الاجتماع عن هذه العلوم، بل هي تفيد منها، وتعمق من نتائجها؛ مما يساعد في النهاية على إقامة وحدة فكرية شاملة حول الإنسان والمجتمع ماضيًا، وحاضرًا، ومستقبلًا(١).

ومن أجل تحقيق هذه المهمة العلمية على علماء الاجتماع أن يحللوا مكونات الأحداث والمشكلات الاجتماعية، فأبرز مهمة في علم الاجتماع هي التقصي، والتنقيب عن مشكلات المجتمع الجوهرية والفرعية، وكشف أسباب حدوثها، والوقوف على عللها؛ من أجل معالجتها، ثم تجنب مخاطرها، وتلافي حدوثها أو تجاوزها، وغالبًا ما تعتمد مناهج البحث في السوسيولوجيا على المنهج التجريبي، عبر التجارب والمقارنات العامة داخل المجتمعات وبينها، إلى التجارب المكثفة كالعيش في قلب الجماعات الاجتماعية لفهم دينامياته، وتنتج بذلك مجموعة ثرية من الدراسات في الوضع البشري.

ولما كان المجتمع الإنساني في تغير دائم؛ فإن المشكلات الاجتماعية دائمة الحدوث، فاستمرارية تغير المجتمع الإنساني تعقبه استمرارية حدوث المشكلات الاجتماعية المتنوعة والمتعددة؛ وبناءً على ذلك، فإن مهام علم الاجتماع ليست مقتصرة على دراسة التغيرات الاجتماعية، وأسبابها، ونتائجها فحسب، بل ودراسة المشكلات الاجتماعية التي تحدثها هذه التغيرات، ومعرفة أسبابها وآثارها.

المطلب الثاني: بداية ظهور السوسيولوجيا:

بدأ ظهور علم الاجتماع على عدة مراحل، وفي عدة مجتمعات؛ حيث كان ظهوره كعلم مستحدث في أول الأمر في غرب العالم الإسلامي، ثم ظهر بعدها بقرون في المجتمع الغربي لأسباب وظروف مجتمعية، وظهرت تسميته، ثم تفرع إلى عدة فروع، وسنأتي لبيان ذلك تفصيلًا:

كان أول ظهور لعلم الاجتماع عند العالم المسلم ابن خلدون – وهو: أبو زيد، ولي الدين، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي(٢)– في مقدمته المعروفة، التي هي مقدمة لكتابه التاريخي المسمى (العبر وديوان المبتدأ

---

(١) ينظر: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عبد الباسط عبد المعطي، ص١٦.

(٢) موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، ٣/١١-١٣.

والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)؛ حيث كان أول من ألّف في علم الاجتماع، وأول من بيَّن أسس هذا العلم، فهو "أول كتاب عرض لأحوال الاجتماع البشري في الدولة، ولاحظ ما يطرأ عليه من عوارض ذاتية، وانتهى إلى أن المجتمع الإنساني ممثلًا في الدولة كائن عضوي حي يولد، ثم ينمو، ثم ينضج، ثم يستهلك نفسه، ثم يموت"(١)، وكعادة العلوم في أول نشأتها لم يُسمّ هذا العلم بعلم الاجتماع من حين ظهوره، بل أسماه ابن خلدون: "علم العمران البشري والاجتماع الإنساني"(٢)، وقال عنه: إنه على نسق غير مسبوق، ولا نحتاج إلى الاستدلال على أن هذا الكتاب كان لبنة أولى في حقل معرفي لم يُسم من قبل، وكان نقلة مؤثرة في العلوم الإنسانية؛ وظهرت فيه نتائج فريدة غير مسبوقة، فوصفه مؤلفه قائلًا: "وكأنّ هذا عِلْمٌ مُستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو: العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي: بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدةً بعد أخرى، وهذا شأن كل عِلْمٍ من العلوم وضعيًّا كان أو عقليًّا، واعلم أن الكلام في هذا الغرض مُستحدث الصنعة، غريب النزعة، عزيز الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدى إليه الغوص"(٣)، وقد بيَّن ابن خلدون فرق هذا العلم عن غيره من العلوم فقال: "واعلم أن الكلام في هذا الغرض ... ليس من علم الخطابة، إنّما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي، أو صدهم عنه، ولا هو أيضًا من علم السياسة المدنية؛ إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة؛ ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه، فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يُشبهانه، وكأنه علم مُستنبط النشأة، وَلَعَمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة، ما أدري ألغفلتهم عن ذلك؟، وليس الظن بهم، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا، فالعلوم كثيرة، والحكماء في أمم النّوع الإنساني متعدّدون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل"(٤).

ويقول ابن خلدون مبينًا مراده بالعمران البشري: "اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل: التوحش، والتأنس، والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب، والمعاش، والعلوم، والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"(٥)، فبين ابن خلدون أنه يريد بعلم العمران البشري علم الاجتماع؛ حيث وضَّح ذلك بقوله: "العمران البشري والاجتماع الإنساني"(٦)، وفي الفصل الأول من الكتاب الأول قال: "في العمران البشري على

(١) المرجع السابق.

(٢) المقدمة، ابن خلدون، ص١٨.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص٧٩.

(٦) المرجع السابق، ص٩.

الجملة، وفيه مقدمات؛ الأولى: في أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطّبع، أي: لا بد له من الاجتماع، الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العُمران"[١]. فأطلق ابن خلدون اسم الاجتماع الإنساني على عمران العالم، أو العمران البشري، ويعد ابن خلدون أول السابقين إلى تأسيس علم الاجتماع؛ لأنه حدد موضوع هذا العلم، وسماه بعلم العمران البشري والاجتماع الإنساني.

والكلمات السابقة من ابن خلدون تبين أهمية هذا الكتاب، وأن مؤلفه هو المنشئ الأول لعلم الاجتماع، وظهر بعده بقرون علم الاجتماع في العالم الغربي، وكان يطلق عليه مسميات عدة كالفيزياء الاجتماعية، وكان أول فيلسوف أوربي استعمل اصطلاح علم الاجتماع Sociologie وأطلقه على البحث في الظواهر الاجتماعية هو: الفيلسوف اوغوست كونت[٢]؛ حيث قال: «أعتقد أنه يجب علي أن أخاطر بنفسي منذ الآن في استعمال هذا الاصطلاح الجديد، بدلًا من اصطلاح الفيزياء الاجتماعية الذي استعملته سابقًا؛ وذلك للدلالة باسم واحد على ذلك القسم الإضافي من الفلسفة الطبيعية المتعلق بدراسة القوانين الخاصة بالظواهر الاجتماعية"[٣].

وقد نشأ علم الاجتماع في المجتمع الغربي لأول مرة؛ استجابة للتغيرات التي حدثت في العالم بعد الثورات التي مسَّت أوروبا في القرن الثامن عشر، والتغيرات الجذرية التي حدثت في المجتمعات الأوروبية، وشملت هذه التغيرات الحروب والمعارك العسكرية، وما خلفته من كوارث بشرية واقتصادية واجتماعية، وكذلك ظهور الصناعة، وبدء العمل في المصانع والمدن، بدلًا من الاشتغال بالزراعة في القرى الريفية، ثم بعد ظهور العلم وقوة العلوم الطبيعية والتجريبية بدأ العلم يتحدى الأفكار الدينية ويصنفها بأنها رجعية، وكان لذلك آثار مجتمعية، وكانت هذه التغيرات والتحولات مؤدية إلى أزمات اجتماعية يصعب حلها، فجاء التفكير في ظهور علم يراقب ويفسر ويفهم كل هذه التغيرات، ويحل هذه المشكلات التي كانت نتيجة طبيعية ومنطقية لما سبقها من حالة الاضطراب التي عاشتها أوروبا في حينها، فكان الاهتمام حينها متركزًا على القضايا الاجتماعية، والمشكلات البشرية، وتصاعد الاهتمام بهذه المشكلات لدى المفكرين والفلاسفة، فدعوا إلى الإصلاح، وإعادة ترتيب الحياة الاجتماعية، وأسس تنظيم المجتمعات، فكانت هذه الأسباب مهيأة لنشأة علم اجتماعي يكون قادرًا على القيام بتحليل الواقع وحل مشكلاته، عن طريق استعمال منهج علمي على غرار علوم الطبيعة.

فجاءت دعوة سان سيمون[٤] لظهور علم الإنسان؛ حيث اقتفى آثار العلوم الطبيعية لوضع الأسس الأولى لعلم الاجتماع، وقد كان هدفه هو إعادة تنظيم المجتمعات الأوروبية، ووضع قاعدة تعتمد على العلم والتصنيع،

---

(١) المرجع السابق، ص٨٥.

(٢) ينظر: المعجم الفلسفي، جورج صليبا، ص٣٨.

(٣) A.Comte, Cours de philosophie, positive, 47 leç, 1839. نقلًا عن: المعجم الفلسفي، جورج صليبا، ص٣٨.

(٤) سان سيمون هو: واحد من أكثر الأرستقراطيين الفرنسيين تميزًا، عاش من ١٧٦٠م حتى عام ١٨٢٥م، قام بتطوير منظومة من الأفكار عن التقدم الاجتماعي، وأطلق عليها: الأيديولوجيا المميزة للتصنيع، وعمل معه أوجست كونت من عام ١٨١٧م إلى عام ١٨٢٤م. ينظر: موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ٨٠١/٢.

وكان هاجس العلوم الطبيعية مسيطرًا على التفكير السوسيولوجي الذي اعتمد ذلك النموذج العقلاني الذي وضعه الطبيعيون، وعرفت المقاربات السوسيولوجية للظواهر الاجتماعية إسقاطًا للنموذج الطبيعي على الظواهر الاجتماعية، المعتمد على التجربة والملاحظة المباشرة، والقائم على مبدأ السببية والحتمية، ومن هنا ظهرت فكرة المنهج العلمي للعلم الاجتماعي، الذي يعتمد على مجموعة من الخطوات والمراحل للوصول إلى النتائج الموثوقة، وذلك باختلاف الظواهر والموضوعات، واعتبر المنهج التجريبي بداية تلك المرحلة، فكان التأثر واضحًا بنموذج العلوم الطبيعية (خاصة الفيزياء النيوتينية) لدى مؤسسي علم الاجتماع، وبدأت ملامح هذا العلم تتضح أكثر مع المؤسس أوجست كونت تلميذ سان سيمون، ولم يَخفَ تأثره العميق بفيزياء نيوتن؛ حتى إنه أطلق تسمية "الفيزياء الاجتماعية" على علم الاجتماع في أول الأمر، وكانت بداية ذلك أن رفض حالة الأزمة والثورة، التي هي في نظره مصدر للفوضى الأخلاقية والفوضى السياسية، فسعى إلى رفع الفوضى الأخلاقية والسياسية، وإعادة النظام إلى المجتمع؛ بإقامته المعرفة العلمية بالحياة العملية للمجتمع، ودعوة "كونت" إلى قيام السوسيولوجيا وكان الهدف من هذه الدعوة هو السيطرة مرة أخرى على النظام السياسي والاجتماعي والأخلاقي للمجتمع الأوروبي، فكانت هذه الظروف السياسية والاجتماعية وما صاحبها من الفساد الأخلاقي سببًا في سرعة ظهور علم الاجتماع الغربي، وظهور حركته؛ سعيًا لإعادة التنظيم الأخلاقي التي كانت منتظرة من العقل وحده، أي: من العلم، فنتج عن هذا علم الاجتماع(١).

وقد ارتبطت نشأة علم الاجتماع في أوروبا بقوة بعدد من الشخصيات، ومنهم:

١- أوجست كونت:

كان الفرنسي "أوجست كونت" (١٧٩٨-١٨٥٧م) التقى في عام ١٨١٨م بسان سيمون، وصار تلميذًا مخلصًا له، وهو من أوائل الذين استخدموا مصطلح "علم الاجتماع" لوصف هذا العلم الذي يؤسس لدراسة المجتمعات بطريقة علمية، كما هو الحال في العلوم الطبيعية، ورأى أنه من الممكن التنبؤ بالظواهر الاجتماعية شأنها شأن الظواهر الأخرى، وجعل قوام علم الاجتماع أربع وسائل: الملاحظة، والتجربة، والمقارنة، والمنهج التاريخي؛ حيث رأى أن التجربة ممكنة في علم الاجتماع، وأراد أن يستخدم هذا العلم الجديد "علم الاجتماع" في تغيير الأوضاع الراهنة آنذاك في فرنسا بعد الأزمة التي أحدثتها الثورة الفرنسية وإمبراطورية نابليون الأول، وأراد وضع نظام اجتماعي جديد وتشريع لتحقيقه، ورأى أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بالروح الوضعية التي دعا إليها، فكان من أبرز مؤسسي الفلسفة الوضعية وعلم الاجتماع، وله عدة مؤلفات، من أهمها: دروس في الفلسفة الوضعية(٢).

(١) ينظر: علم الاجتماع من النشأة إلى الأزمة، أحمد عماد الدين خواني، ص٩٨-١٠٣، ومقدمة إلى علم الاجتماع، كين براون، ص٨.

(٢) موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، ٣١٤/٢، ومقدمة إلى علم الاجتماع، كين براون، ص٩.

٢- إميل دوركايم:

هو أحد مؤسسي علم الاجتماع (١٨٥٨-١٩١٧م)، وقد أنشأ أول قسم في أوروبا لعلم الاجتماع، وكان أول أستاذ لعلم الاجتماع في فرنسا، حرص على دراسة علم الاجتماع لاكتساب فهم علمي للمجتمع من أجل تحسينه، وهو واضع النظرية الاجتماعية للفلسفة الوظيفية، التي تعتبر المجتمع قائمًا على الإجماع أو الاتفاق، وأنه متناغم في العموم، وكانت هذه النظرية الوظيفية نهجًا أو منظورًا اجتماعيًّا طويل الأمد، وقد ترجمت معظم كتب دوركايم الأساسية إلى اللغة الإنجليزية بعد وفاته، ومن مؤلفاته: قواعد المنهج في علم الاجتماع، وكذلك كتب قبله أطروحته: تقسيم العمل الاجتماعي، التي كتبها خلال معاناته من شظف العيش إبان سنوات عمله كمدرس بالتعليم الثانوي، وغيرها من المؤلفات(١)، وقد أكد دوركايم في كتاب قواعد المنهج على أن علم الاجتماع يتميز عن غيره من العلوم الإنسانية كعلم له طابعه الإمبيريقي القائم على الملاحظة، لا التجريد النظري، والقائم كذلك على دراسة الظواهر الاجتماعية، لا الظواهر النفسية، وأنه يطور تفسيرات وظيفية وسببية في آن معًا(٢).

٣- كارل ماركس:

كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) هو فيلسوف، ومنظر اجتماعي ألماني، ومؤسس المادية التاريخية في علم الاجتماع، فضلًا عن كونه مؤسس المذهب السياسي المسمى بالشيوعية، والماركسية نهج اجتماعي وسياسي رئيسي حمل اسمه، وما زال العديد من أفكاره مطبقًا في علم الاجتماع اليوم، مثل: أفكار المجتمع المنقسم حسب الطبقة الاجتماعية، والصراع بين الأغنياء والفقراء، فهو يرى بنظرية الصراع، وقوة المادة، وأنها المحرك الأساسي للمجتمعات والمؤثر الأقوى فيها. وقد رأى ماركس في الدراسة العلمية للمجتمع في المقام الأول وسيلة لفهمه؛ من أجل تغييره وتحسينه لصالح الفقراء والمهمشين، وله عدة مؤلفات، منها: الأيديولوجية الألمانية، رأس المال(٣)، ورد الفعل على أعمال ماركس كان قوة رئيسية في تشكيل الكثير من النظريات الاجتماعية وتأسيسها(٤).

٤- ماكس فيبر:

هو عالم اجتماع ألماني (١٨٦٤-١٩٢٠م)، رأى فيبر -مثله مثل ماركس- أن المجتمع يقوم على الصراع بين فئاته الاجتماعية، وليس على التناغم والاتفاق بحسب رؤية دوركايم. ومن إسهامات فيبر المهمة إدراك أن المجتمع لا يمكن دراسته بطريقة علمية موضوعية بحتة، وقد ابتكر منهج الفهم للمجتمع، وهي وجهة النظر القائلة: إنه لفهم سبب تصرف الناس بالشكل الذي يتصرفون به من الضروري أن تضع نفسك مكانهم، وأن تفهم الأمور من وجهة نظرهم، ويعد "فيبر" و"دوركايم" هما أبرز مؤسسي علم الاجتماع الحديث كعلم اجتماعي متميز، وإن كانت أعمال فيبر هي الأكثر تركيبًا وطموحًا، وما زالت تمثل معينًا ثريًّا للتفسير والإلهام بفكر جديد، وكانت أفكار فيبر مؤثرة

(١) موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ٧٣٠/٢، وموسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، ٣١٤/٢.

(٢) ينظر: قواعد المنهج في علم الاجتماع، دوركايم، ص٩٧، ودليل أكسفورد للفلسفة، هوندرتش، ٣٥٩/٢.

(٣) ينظر: موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ١٢٥٦/٣.

(٤) ينظر: النظريات الحديثة في علم الاجتماع، جورج ريتز وآخرون، ص٣٧.

للغاية في وضع الأطر النظرية لعلم الاجتماع، وكيفية إجراء الأبحاث الاجتماعية، وما زالت لأفكاره تأثيرات مهمة في علم الاجتماع المعاصر(١). ولعلم الاجتماع الكثير من العلماء الذين ساهموا في تأسيسه وتطويره فيما بعد.

المطلب الثالث: مفهوم سوسيولوجيا الأفكار:

الأفكار: جمع فكرة، وأصلها من الفكر، وهو لغة: إعمال الخاطر في الشيء، وقد فَكَرَ في الشيء، وأفكر فيه وتفكر بمعنى واحد، أي: تأمله، وأعمل عقله فيه(٢)، فالفكر هو: إعمال العقل، والمفكرون هم المنتجون للأفكار، وهم الذين ينتجون الأفكار الخالصة التي تكون صحيحة في أي سياق وجدت فيه، وغير مرتبطة بأسباب معينة أو محيط معين، وسوسيولوجيا الأفكار أو التفكير يراد بها التفكير الاجتماعي، والموضوع الأساسي لها هو دراسة الأصول الاجتماعية للأفكار، والكشف عن كيفية ارتباط هذه الأفكار بالجوانب المختلفة للواقع الاجتماعي، فالتفكير سوسيولوجيا يراد به: "السعي إلى فهم الوضع الإنساني عن طريق تحليل الشبكات المتعددة للاعتماد البشري المتبادل"(٣).

وتسمى سوسيولوجيا الأفكار: سوسيولوجيا المعرفة، فهي: دراسة تتعلق بالأصول والآثار الاجتماعية للأفكار، وتسعى للكشف عن القوانين والسنن السوسيولوجية التي تحكم علاقة الوعي بالواقع عامة، وبالواقع الاجتماعي على وجه التحديد، وقد حضي هذا العلم بالأهمية على مدى تاريخ علم الاجتماع، ويكمن دور سوسيولوجيا المعرفة في أنها تنتقل بنظرية المعرفة من التأمل الميتافيزيقي إلى الحالة العلمية(٤).

فالتفكير السوسيولوجي يبحث عن الأسباب الموضوعية والذاتية للظواهر الاجتماعية والتاريخية، ويجيب على مشكلات الواقع الاجتماعي، فهو يرى الفرد بوصفه كائنًا في محيط اجتماعي يتأثر به، ويؤثر فيه، ويرى أن لهذا المجتمع تأثيرًا على الفرد، وعلى وعيه وعقله وفكره، فالتفكير السوسيولوجي هو المعبر عن خلفيات الواقع الاجتماعي عن طريق دراسة العقل الاجتماعي، فيرى بالعقل الجمعي أو الاجتماعي، ويراد به: اشتراك جمهور في عقيدة دينية، أو رأي واحد سياسي، أو في زي واحد، أو تقليد واحد، بحيث تتوجه أفعالهم إليه، وهذا يستلزمُ أنْ تكون عَقيدتهم الفردية متطابقة، وكأنَّهم يفكرون فكرًا واحدًا، ويريدون غاية واحدة، ويتعاونون في الحصول عليها؛ لذلك ترى أنه إذا صدرت فكرة من مركز واحد رئيسي كحكومة، أو سلطة دينية، أو جمعية، أو حزب، أو شبه رئيس كزعيم، أو عالم، أو غيره؛ انتشرت هذه الفكرة على جميع العقول الفردية، وكانت مؤثرة عليها، فالعقل الاجتماعي هو: "مجموعة عقول فردية مصوغة صياغة واحدة في بيئةٍ واحدة، تتحرك معًا في اتجاه واحد، كما

(١) موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ١٠٩٨/٣.

(٣٥) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦٥/٥.

(٣) التفكير سوسيولوجيا، زيغمونت باومان وتم ماي، ص٣٤.

(٤) ينظر: المعرفة السوسيولوجية وسوسيولوجيا المعرفة بين العقل والتجربة الحضارية، د. دناقة أحمد، ص١٥٤.

تتحرَّك ملايين ذرَّات المادة معًا في جرم واحد حول مركز واحد بسرعة واحدة؛ لارتباط جاذبي فيما بينها وبين المركز، فالفكرة أو الرأي الاجتماعي هو المركز الذي تحوم من حوله عقول الجماعة بقوة جاذبية ذلك الرأي لها"(١).

والتفكير السوسيولوجي يسعى لفهم البيئة الاجتماعية في إطارها التاريخي الذي يعبر عن التطور التدريجي للفكر؛ إذ يرى أن من الخطأ أن نقول: الفرد الواحد يفكر، بل الأصح أن نؤكد أن الفرد يساهم في جعل الفكر يتقدم على ما أوصله إليه الآخرون من قبله. إن الفرد يجد نفسه -في كثير من الحالات-وارثًا لأنماط فكرية معينة. ويحاول الفرد أن يزيد أنماط وردود الفعل الموروثة إتقانًا، أو أن يستبدلها بأنماط غيرها، فالفكر لا ينفصل عن سياقه الاجتماعي الذي نشأ فيه، والعوامل الاجتماعية تساهم في تفسير هيمنة أنماط فكرية في المجتمع دون غيرها، والتقسيم الطبقي في المجتمع يبين أن لكل طبقة اجتماعية نظام تفكير يختلف عن الطبقة الأخرى(٢).

والقدرة على التفكير جزء لا ينفصل عن العقل، والعقل في نظر التفاعليين الرمزيين عملية مستمرة، وهي جزء من عملية التفاعل، وكذلك جزء من عملية الاستجابة، ويرتبط العقل تقريبًا بكل جوانب التفاعل، بما في ذلك التنشئة الاجتماعية، والمعاني، والرموز، والذات، والمجتمع(٣).

والتفكير في الأصل هو فعل فسيولوجي؛ من حيث إنه دافع للاعتقاد ثم العمل، وهو فعل نفساني؛ من حيث إنه يستلزم نشاطًا للعقل، وهو فعل اجتماعي؛ من حيث إنه لا يخلو مجتمع من الأفكار المرسخة فيه، والأفكار الطارئة عليه، وغيرها، فلكل جماعة طابعها الخاص، وفكرها الذي ينشأ ويتطور تدريجيًّا حتى يصبح الأفراد متشابهين فكرًا واعتقادًا، ولكل ذلك دور في التماسك، أو التفكك الاجتماعي، ففكر كل مجتمع هو أصل قوته، أو أساس ضعفه، ففي المجتمعات تنمو التصنيفات الفكرية داخل المجتمع وتزداد قوة، ومما يقويها السلطة الاجتماعية بتأسيسها للتفكير الاجتماعي، فهي تشل العقل وتسيره إن قليلًا وإن كثيرًا، ومن تأثير التفكير على الجماعات أو المجتمعات تصنيف الأشخاص والجماعات الأخرى اعتمادًا على التفكير فقط، ويمكن أن يبرر ذلك من الناحية الفلسفية عن طريق المطابقة التقليدية للفكرة، أو التصور الذهني المترتب بها، وأثرها على الأفراد والمجتمعات.

وللعقل الإنساني في التفكير ثلاث مراتب: العقل التمييزي، ثم العقل التجريبي، ثم العقل النظري. أما العقل التمييزي فهو قدرة عقلية للتمييز بين الأشياء، وتصور كل منها على حدة، أما العقل التجريبي فهو معرفة حسية، تستند على ما تنقله إلينا الحواس، ومنه المعرفة المتعلقة بالتجربة الاجتماعية، وفوق مرتبة العقل التجريبي هناك مرتبة العقل النظري، وهو تصديقات وتصورات تنتظم على شروط خاصة، وغايته تصور الوجود على ما هو عليه بأسبابه وعلله، فيكتمل ذلك العقل على حقيقته، ويصبح عقلًا محضًا، وفكرًا مدركًا، وهو معنى الحقيقة الإنسانية(٤)،

(١) فلسفة الوجود، نقولا حداد، ص٨٠.

(٢) ينظر: المعرفة السوسيولوجية وسوسيولوجيا المعرفة، د. دناقة أحمد، ص١٥٤.

(٣) ينظر: النظريات الحديثة في علم الاجتماع، جورج ريتز وآخرون، ص٢٣٦.

(٤) ينظر: المعرفة السوسيولوجية وسوسيولوجيا المعرفة بين العقل والتجربة الحضارية، د. دناقة أحمد، ص١٥٤.

والتفكير الاجتماعي يدرس التصـــديقات، والتصـــورات، وخلفيات الأفكار، ومولداتها، ومســـبباتها الاجتماعية، وآثارها البعيدة.

والتفكير الاجتماعي مكون من أفكار، وللأفكار مولدات وبواعث عدة، ومنها: الأفراد، فالأفراد يولدون الأفكار، وهم الوكلاء المسؤولون عن الأفكار، وما ينتج عنها من عقائد، وطقوس، وعادات، وقوانين، وغيرها، وتتم معرفة أفكار الأفراد عن طريق تجريدهم من البيئة المحيطة بهم، والفرد مُوّلد الفكرة، وهو كذلك متأثر بها، فكل شيء في الإنســان يتغير بتغير البيئة والســياق الفكري المجتمعي؛ ذلك أن الفرد هو نتاج فكري مجتمعي، وتبعًا لذلك فإن كل ثمار فاعليته، وكل القيم المادية والأدبية لدى الإنسان؛ هي نتاج الأفكار الفردية أو المجتمعية(١).

فالأفراد يولدون الأفكار، وهم مصـــدرها، وذلك عن طريق الفكر واللغة، فالإنســـان البدائي قد يظن أن كل كلمة تقابلها حقيقة واقعية، ومن هنا نشـــأ الاعتقاد في الأصـــنام مثلًا، فهو يبدأ بفكرة، ثم تعبير لغوي عنها، ثم تكرار يوصـــل للاعتقاد، واللغة أداة الفكر، فهي تعمل على إظهار الأفكار وإبراز قيمتها، وتحيط بكل حناياها ومنعرجاتها، وتكشف بشفافيتها عن كل دقائقها، ولا نعلم أن الوجود قد رأى أداة أكمل منها في التعبير عن الفكر الإنســاني فهي التي مكنت الإنســان من الشــعور بذاته، والتواصــل مع غيره، وترســيخ اعتقاداته، وســهلت تكوين الجماعات، وتكوين أفكارها؛ ولذا كان تحليل الخطاب من أهم أدوات عالم الاجتماع؛ لما فيه من تحليل لفكر الأفراد والجماعات.

والقدرة على التفكير تتشـــكل من خلال التفاعل الاجتماعي، فالبشـــر يتمتعون بالقدرة على التفكير، وفي التفاعل الاجتماعي يتعلم الناس المعاني والرموز التي تسمح لهم بممارسة قدرتهم البشرية المميزة على التفكير، فالأفراد قادرون على تعديل أو تغيير المعاني والرموز التي يســتخدمونها في الفعل والتفاعل على أســاس تفســيرهم للموقف وطريقة فهمه، وتســمح المعاني والرموز للناس بمواصــلة الفعل والتفاعل الإنســاني، وتشــكل أنماط الفعل والتفاعل المتشابكة مجموعات ومجتمعات(٢).

فمن مولدات الأفكار بعد الأفراد: الأفكار نفســـها، فهي تُوَلّد الأفكار، وقد جرى العُرف بين المؤرخين الفكريين الدخول في الدلائل والمفاهيم التي يتم من خلالها إثبات كيف يمكن لمجموعة أفكار أن تنشـــئ مجموعة أخرى من الأفكار، أو ترشدها وتوجهها(٣)، وهذه الأفكار توجد عندما يكون هناك شبكة من المفكرين يتم التركيز من خلالهم على حججهم وتراكم سـلسـلة من مبادئهم، فالبنية الداخلية لهذه الشـبكات الفكرية هي التي تشـكل الأفكار وتكونها من خلال أنماط تسلسلية ممتدة من جيل لآخر.

(١) ينظر: علم اجتماع الفلسفات، راندال كولينز، ١/٢٢- ٢٣.

(٢) ينظر: النظريات الحديثة في علم الاجتماع، جورج ريتز وآخرون، ص٢٣٦.

(٣) ينظر: علم اجتماع الفلسفات، راندال كولينز، ١/٢٢- ٢٣.

وكذلك من مولدات الأفكار: الثقافة فهي مولدة للأفكار والثقافات، فهي تتولد بنفسها مكونة المواقف الثقافية، والأعراق، والعقائد الدينية[١]، وبعد تولد الأفكار يكون انتشارها، فكل فكرة صادرة من مركز ابتكاري هي مركز حركة الانتشار، فالفكرة تنتشر من المركز إلى عقول الجماعة.

ويتم متابعة تولد الأفكار وانتشارها عن طريق دراسة تاريخ الأفكار، ولا يمكن مشاهدة دور الأفكار وتأثيرها في المجتمعات دون التحقق والالتحام بالتاريخ؛ فإن دراسة التاريخ هي التي تبين نشأة الأفكار والمسلمات الفكرية؛ حيث يتميز كل عصر بنسق ثابت من الأفكار والقيم. فالتفكير الاجتماعي يعدّ نظرية من جهة، وبحثًا تاريخيًّا اجتماعيًّا من جهة أخرى، فهو نظرية من خلال محاولته تحليل العلاقة بين الفكر والوجود الاجتماعي، وهو بحث تاريخي اجتماعي من خلال محاولته تعقب أشكال الفكر خلال تطور الفكر الإنساني عبر التاريخ، وللتاريخ والبيئات تأثير كبير على الفكر المجتمعي، وعلى الإنسان عمومًا، فتاريخ المجتمعات يسبب تغيرات مستمرة في الطبيعة البشرية والفكر الفردي والمجتمعي[٢]، ويمكن للمقاربة التاريخية أن تقدم عونًا بالغ الأهمية في التفكير السوسيولوجي؛ لأنها تعطي خلفية واسعة حول كيفية تشكل الأفكار، وتطور دلالاتها، وكذلك القيم والمفاهيم، وعن أبعاد تشكل مختلف المعارف العلمية، والإضافات العلمية، والظروف التي وجدت فيها هذه الإضافات.

وترتبط سوسيولوجيا الأفكار بعدد من العلوم والفلسفات ارتباطًا مباشرًا، ومنها: فلسفة العلوم الاجتماعية[٣]؛ عن طريق دراسة أصول الأفكار والمعتقدات، وكيفية تطورها، وتأثيرها على المجتمعات، وكذلك ترتبط سوسيولوجيا الأفكار بفلسفة تحليل الخطاب[٤]، وهذا المجال يدرس كيفية استخدام اللغة لبناء المعنى، وتأثير اللغة على التفكير والسلوك، فتحليل الخطاب مهم لفهم كيفية تداول الأفكار، وتأثيرها على المجتمع، أما علاقتها بعلم النفس الاجتماعي[٥]: فهو يدرس كيف تؤثر العلاقات الاجتماعية على الأفكار والسلوك، ويمكن أن يكون علم النفس الاجتماعي مفيدًا لفهم كيفية تشكل الرأي العام، وتأثيره على الأفراد والمجتمعات، وكذلك ترتبط سوسيولوجيا الأفكار بعلم تاريخ الأفكار[٦]، وهو: يدرس تطور الأفكار والمعتقدات على مر العصور، وترتبط أيضًا بفلسفة اللغة[٧]، وهي: تدرس العلاقة بين اللغة والواقع والمعنى.

(١) ينظر: علم اجتماع الفلسفات، راندال كولينز، ٣١/١.

(٢) ينظر: علم النفس الاجتماعي، ب، بورشنيف، ص١٥.

(٣) ينظر: موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ١٤٧٧/٣، و١٠١٤/٢.

(٤) ينظر: موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ٣٦٣/١.

(٥) علم النفس الاجتماعي، ب. بورشنيف، ١٠٣٠/٢، وينظر: موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ١٠٢٩/٢.

(٦) علم النفس الاجتماعي، ب. بورشنيف، ١٠٣٠/٢.

(٧) علم النفس الاجتماعي، ب. بورشنيف، ١٠٣٠/٢.

وأما أهمية التفكير الاجتماعي فتكمن في أن الأفكار هي التي تكوّن المجتمعات، وتجعلها متمايزة عن غيرها، ومترابطة فيما بينها، وتجعل لكل مجتمع مقدسات مختلفة عن غيره من المجتمعات، والأفكار والمبادئ التي يبنى عليها مجتمع لا تنطبق ضرورة على مجتمع آخر، فنشوء الأفكار وتطورها لا يتم في تتابع منطقي ثابت، وليس له طريق مستقيم منذ بداية العقل الإنساني، بل تنشأ وتتطور بالتدريج وعن طريق التتابع المنظم، فتنشأ الفكرة عن عقل الفرد، ويتم إيصالها عن طريق اللغة، ومن ثم يكون التكرار والانتشار، وبعض الأفكار تصبح مسلمات؛ من حيث إنها انتشرت وألفها الناس، ثم نشأ عليها جيل جديد، وأصبحت لديه من المسلمات التي لا خلاف فيها، كما وصف ذلك ابن قتيبة في بعض الأفكار العقدية، التي أصبحت من المسلمات التي لا يمكن الخوض فيها، ولا التشكيك في صحتها، ونشأ جيل جديد عليها، "فيستحكم أساسها، ويعتادها الكهل، وينشأ عليه الطفل، ثم يكون من العسير على المداوين أن يخرجوا من القلوب ما قد استحكم بالألف، ونبت على شراه اللحم"(١)، فالإلف للفكرة يجعلها مستحكمة متينة، وينشأ عليها جيل، وتصبح عندهم من اليقين الذي لا شك فيه.

وهكذا تأتي أهمية الفكرة من كونها تتجرد من العادية، أو تسمو على الاهتمامات المألوفة "فمجال الفكر وحده هو الذي يتجرد ويسمو فوق الاهتمامات العادية، ومن هذا التجرد عن العادي تكتسب الأفكار قيمتها"(٢)؛ ولذا كان اهتمام علماء الاجتماع بالفكر المجتمعي؛ لما له من أهمية في فهم الإنسان لنفسه ولمن حوله، وفي علاقته بالبيئات الاجتماعية التي يعيش فيها، ويرتبط هذا التفكير الاجتماعي بالقدرة على النظر إلى جدلية الفرد والبنية الاجتماعية، وارتباطها ارتباطًا وثيقًا بالحس العام(٣).

ومن أهمية التفكير الاجتماعي أنه يخاطب المعرفة ويزيدها، ويشجع على التجربة والتعلم والوصول لحقائق جديدة، ويساهم في الانفتاح على الأفكار والحقائق والتأكد من مصداقيتها، ويزيد من معرفة الإنسان لنفسه ولغيره، فهو عملية دينامية ومثيرة تستهدف تعزيز فهمنا للوضع الإنساني في البيئات التي نعيش فيها، ويساهم التفكير الاجتماعي في تقبل الفرد للاختلاف والتنوع، فهو يتجاوز التجربة المباشرة، ويساعد في فهم القضايا وتفسيرها، فيصبح قوة في حد ذاته، ويمكّن الفرد، ويوسع نطاق الحرية وفاعليتها العملية، فهو نمط تفكير يعزز قدرتنا كفاعلين اجتماعيين على رؤية الصلات بين الشخصية والفعل والسياق، وعلى إدراك قابلية تحول المكونات التي تدّعي عدم قابليتها للتغيير بفضل ثباتها.

ومن أهمية التفكير الاجتماعي أنه يسهل على علماء الاجتماع الوصول لأصول القضايا الفكرية والمعتقدات الجماعية، ومسبباتها، وآثارها، فالتفكير الاجتماعي يهتم بالفرد، وليس بالفردانية، فيهتم بالفرد كونه جزءًا من المجتمع، فالتفكير الاجتماعي يراد به أن نفهم قيم الأفراد، ومخاوفهم، وآمالهم، ورغباتهم بشكل أكثر اكتمالًا، وبهذه

(١) الاختلاف في اللفظ، ابن قتيبة، ص٢٠.

(٢) علم اجتماع الفلسفات، راندال كولينز، ٤٣/١.

(٣) ينظر: التفكير سوسيولوجيا، زيغمونت باومان وتم ماي، ص٢٨.

الطريقة ربما يتحســـن احترام الثقافات المختلفة، والطرق التي يمارس بها الناس أنماط حياتهم بما يتوافق مع قيمهم الخاصــة، وعلى هذا النحو يمكن للتفكير الســوسـيولوجي أن يعزز الوحدة المجتمعية والتضــامن القائم على الفهم والاحترام(١).

وقد ربط ابن خلدون وبعض علماء الاجتماع المتأخرين بين التفكير والوعي والمجتمع ربطًا محكمًا؛ وذلك لتميز الإنســان عن ســائر الحيوانات بالفكر، وينبثق عن هذا الفكر العلوم، وتنشــأ بين العلوم والفكر علاقة جدلية، يؤثر من خلالها كل طرف بالآخر ويتأثر به، ويتطور المجتمع البشـــري في ظل هذه العملية الجدلية، وينتقل تدريجيًّا من حالة البداوة إلى حالة الحضارة، وتختلف المستويات المعرفية بين الشعوب والمجتمعات باختلاف المستويات الحضارية لهذه الشعوب والمجتمعات(٢).

والأفكار الاجتماعية تتطور أحيانًا لتصل إلى الاعتقاد الجازم، أو التقديس، ففي بعض المجتمعات يكون لبعض الأفكار مكانة عالية وقدســية لفترة من الزمن، ثم ما تلبث أن تضـــمحل وتتلاشـــى، وتحل محلها أفكار أخرى قد تكون مناقضــة لها تمامًا؛ حيث في كل فترة زمنية يقوم المفكرون بتركيز اهتمامهم بأفكار محددة بتأكيدها، أو الزيادة عليها، أو حتى نفيها، والأفكار القديمة كذلك، قد يعاد إبرازها عن طريق تركيز الانتباه عليها، وتوجيه الاهتمام لها، ويمكن أن يتم تجريد تلك الأفكار من قدسيتها وطردها من حياة الجماعة، ويتم طرح أفكار جديدة؛ ليتم تقديســها بدلًا من تلك التي تم نفيها، ومن ثَمَّ فالأفكار المقدسة يتم تقديسها وتجسيدها بمرور الزمن، فكم من فكرة اعتقادية راجت في الفضـاء الفكري، وكان أسـاسـها وأصـلها تحيزًا إلى مذهب أو مدرسـة، فيعتقد بصـحتها وسـلامتها وقوة حجتها، وهي أبعد ما تكون عن الحق والعلم الموضـــوعي، أو معيار الصـــواب والخطأ، بقدر ما هي مقبولة لدى أشــياخ المتعصــب، أو أجواء مذهبه ومدرســته "فمن الناس من ألِف قولًا واعتاده وتقلده عن بعض المعظمين في قلبه... فيكون هذا التقليد مانعًا له من أن يكون عقله صــريحًا"(٣)، والأســوأ من ذلك الاعتقادات التي يتقرب بها، أو يكفر بها بعض المسلمين بعضهم، كما قال الإمام أبو حامد الغزالي: "حجاب عظيم، به حجب أكثر المتكلمين والمتعصــبين للمذاهب، بل أكثر الصــالحين المتفكرين في ملكوت الســماوات والأرض؛ لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم، ورسخت في قلوبهم، وصارت حجابًا بينهم وبين درك الحقائق"(٤)، وفي كل حقبة زمنية يســتحدث الناس بعض الطقوس والمعتقدات –التي لم يكن لها وجود عند من ســبقهم– ومن ثم يتم تقديســها، أو إســقاط بعض المعتقدات التي كانت مقدســة في الفترة الزمنية الســابقة، أو إضــعاف أهميتها ومكانتها، والذي يمنح الأفكار والنصوص هذه القداسة، ويحول الأفكار من كونها أفكارًا عادية وبسيطة إلى عقائد ومقدسات ومسلمات؛ أن أصـــحاب الأفكار قد يرون أن هذه الأفكار تنتمي إلى عالم أكثر علوًّا وسموًّا، وأنها ربانية لا شـــك ولا خلاف

(١) ينظر: التفكير سوسيولوجيا، زيغمونت باومان وتم ماي، ص٢٨-٣٧.

(٢) ينظر: المعرفة السوسيولوجية وسوسيولوجيا المعرفة بين العقل والتجربة الحضارية، د. دناقة أحمد، ص١٥٤.

(٣) بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، ١٥٨/٥.

(٤) معارج القدس في مدراج معرفة النفس، الغزالي، ص٩٥.

فيها، فتصبح من الأمور المقدسة وحقيقة فكرية مسلم بها، فهي تتجاوز الأشخاص، وتصبح واضحة ومحددة، ويجب أن تحترم؛ حيث يرون أنها تنتمي للعالم المقدس، وتسعى نحو الحقيقة المطلقة، كما يفعل الناس في الأديان، ومن ثم تصبح هذه الأفكار المقدسة ذات سلطة في المجتمع؛ فيصبح الشيء المقدس هو الحاكم في المجتمعات الفكرية، وهو الحقيقة المطلقة التي لا تقبل الشك، وكذلك مما يمنح بعض الأفكار قدسية أن هذه الأفكار سبب للتفاعل والتواصل بين أعضاء المجتمع، وهذا التفاعل يشعرهم بالعضوية والوحدة والتضامن، الموصل إلى تقوية بنية المجموعات الاجتماعية(١).

فللأفكار آثار مجتمعية؛ حيث إنها سبب في وحدة المجتمعات، وفي تمزقها أيضًا، وكذلك لا يخلو مجتمع من أسس معرفية وعقدية، وهي سبب في نشأة المعتقدات في المجتمعات؛ حيث إن أساس كل اعتقاد حق أو باطل هي فكرة الأفكار، تحرك الأفراد، ومن ثم الجماعات، ومن ثم المجتمعات والشعوب، وكثير من المذاهب العقلية إنما نشأت بسبب فكرة، كما هو الحال في فكرة الجهم التي كانت سببًا لقيام الجهمية، ثم قيام عدة فرق بعد ذلك، وكما هو الحال في كلمة واصل بن عطاء؛ حيث سبقتها فكرة كانت هي التي كانت سببًا في نشأة الفرق الكلامية، وغيرها، فالأفكار مؤثرة في المجتمعات، ومتأثرة بها أيضًا.

المبحث الثاني: علم الاجتماع وعلاقته بعلم العقيدة

المطلب الأول: تعريف الدين:

الدين في اللغة: العادة، والحال، والسيرة، والسياسة، والرأي، والحكم، والطاعة والجزاء، ومنه: يوم الدين، وكما تدين تدان(٢)، فالدين بمعنى: الطاعة، كما يقال: دانوا لفلان، أي: أطاعوه. وفي المثل: كما تدين تدان، أي: كما تأتي يؤتى إليك(٣)، والدِّين: الحالُ، كما في قول الأعرابي: لَوْ لَقِيتَني على دِينٍ غيرِ هذه لأخْبَرْتُك(٤)، والدين بمعنى: الجزاء، كقولك: دان الله العباد يدينهم يوم القيامة، أي: يجزيهم.

والدين في العموم: ما يدين به الإنسان ويعتقده، فلا يقتصر على الاعتقاد بوجود إله، بل حتى الاعتقاد في المذاهب السياسية كالشيوعية والفاشية يمكن أن يكون اعتقادًا دينيًّا في طبيعته(٥)، وأكد بعض الفلاسفة هذا المعنى بقولهم: "قدرة الإنسان في مجال الاعتقاد هي قدرة غير متناهية"(٦)، فالاعتقادات التي تشملها الأديان مختلفة،

(١) علم اجتماع الفلسفات، راندال كولينز، ٤٤.
(٢) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ١/٥٧٢- ٥٧٣.
(٣) ينظر: كتاب العين، الفراهيدي، ٨/٧٢-٧٣.
(٤) المنجد في اللغة، علي بن الحسن الأزدي، ص٢٠٣.
(٥) المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ١/٣٠٣.
(٦) كيف نفهم الدِّين، جيب جنسن وآخرون، ص٥.

فهناك أديان الآخرة وأديان الدنيا، فأديان الآخرة هي التي تدعو متبعيها إلى الهروب بقدر الإمكان من هذا العالم المادي، بخلاف ما يسمى الأديان الدنيوية التي تفضل الانخراط في هذا العالم الطبيعي المادي(١).

والدين عند الفلاسفة القدماء هو: "وضع إلهي يسوق ذوي العقول إلى الخير"(٢)، أما في الفلسفة الحديثة فللفظ الدين عدة معانٍ، منها: أن الدين: جملة من الإدراكات والاعتقادات والأفعال الحاصلة للنفس، ويلزم منه وجود إله معبود محبوب مطاع(٣)، وتكاد تجمع المصادر الحديثة على أن الدين يفهم منه أنه يعبر عن الإيمان بقوى غيبية، فهو اعتراف بشري بوجود قوة فوق بشرية مسيطرة، هي الإله، أو الآلهة، وله حق العبادة والطاعة(٤).

وعرفه بعضهم بأنه: مؤسسة اجتماعية تضم أفرادًا تعمهم بعض الأحكام المشتركة، ويشتركون في بعض الشعائر، ويؤمنون بقيم مطلقة، ويعتقدون أن الإنسان متصل بقوة روحية أعلى منه، مفارقة لهذا العالم، أو سارية فيه، كثيرة أو موحدة(٥)، أما دوركايم فيعرف الدين بأنه: نسق موحّد من المعتقدات والممارسات ذات الصلة بأشياء مقدسة، أي: مجموعة أشياء مميزة ومحرمة – معتقدات وممارسات تتوحد في مجتمع أخلاقي واحد يسمّى دار عبادة (٦)، وكذلك عرفه بأنه: "مؤسسة اجتماعية قوامها التفريق بين المقدس وغير المقدس، ولها جانبان؛ أحدهما: روحي، مؤلف من: العقائد، والمشاعر الوجدانية، والآخر: مادي، مؤلف من: الطقوس، والعادات"(٧).

وبناء على ذلك فجميع الأديان هي نسق اعتقادي يتضمن قوى يُعتقد بأنها وراء خلق الإنسان، وجميع الأديان تحوي مجموعة مقرّرة من السلوكيات تجاه تلك القوى وتسمى طقوس، ففي كل دين توجد مجموعات كثيرة من المعتقدات والسلوك، والذي لا يتضمن مذهبًا وطقوسًا من غير المرجح أن يسمّى دينًا(٨).

وتختلف تعريفات الدين ومعانيه بحسب توجهات الفلاسفة ونظرتهم الفلسفية، فالدين من وجهة النظر الماركسية هو أفيون الشعوب، وهو كذلك وهم يسكّن الألم الناتج عن الاستغلال والاضطهاد، ويلزم منه مجموعة من الخرافات تبرز شرعية الطبقة الحاكمة وحقها في الامتيازات التي تتمتع بها، وفي نفس الوقت يجعل للطبقة الحاكمة على الطبقة المحكومة سلطة حتمية لا مجال لمناقشتها أو تغييرها، وبناء على ذلك يعدّ الدين من وجهة

(١) ينظر: المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ٥٨٥/١.
(٢) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ٥٧٢/١– ٥٧٣.
(٣) ينظر: المرجع السابق.
(٤) دليل أكسفورد للفلسفة، هوندرتش، ٣٨٤/٢.
(٥) ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ٥٧٢/١– ٥٧٣.
(٦) ينظر: المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ٣٠١/١، بتصرف يسير.
(٧) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ٥٧٢/١– ٥٧٣.
(٨) ينظر: المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ٥٨٥/١.

النظر الماركسية أداة من أدوات السلطة الاجتماعية التي تحافظ على استمرارية النظام الاستغلالي، وتعزز العلاقات الطبقية به، وإن إزالة الدين –بوصفه السعادة الوهمية للشعب– هي الشرط لتحقيق السعادة الحقيقية(١).

ومن آثار هذه التحليلات الماركسية أن العديد من علماء الاجتماع ينظر إلى الدين على أنه ظاهرة عرضية، أو نيةٌ فوقية ذات أهمية اجتماعية ثانوية، وهذا التقليص والتهميش التدريجي للدين قد شجعه فلاسفة تتابعوا في التاريخ، وفكروا بطريقة أو بأخرى أن انبثاق المجتمع المعاصر وتصدر العلم يعني: اختفاء الدين تدريجيًّا، أو تصفيته عند أجل محدد، وتم تدعيم وجهة النظر هذه في المجتمعات الغربية من خلال فقدان المؤسّسات الدينية سيطرتها الواقعية على المجتمع والأفراد(٢)، فساهم إقصاء الدين في انخفاض ممارسة الطقوس الدينية، وحصول بعض الأزمات الأخلاقية والسلوكية.

أما أصحاب الفلسفة التطورية فلهم رأي آخر في معنى الدين، فقد رأوا أن المجتمع الإنساني قد مر بمراحل مختلفة، مبتدئًا بالأعمال البسيطة، ومنتهيًا بالدولة أو الأمة المعقدة، وبالطريقة نفسها طُوِّر الدين، فإن ديانة الإنسان الحديث ما هي إلا نتيجة لتطور النظام الديني البسيط الذي عرفه الإنسان منذ القدم، فهي تتطور بتطور حاجاته، فهذه النظرة النشوئية التطورية تفسر الدين انطلاقًا من حاجات الإنسان، فالدين –في منظورها– هو استجابة لحاجات الإنسان الفكرية، أو إشباع لحاجات الإنسان العاطفية(٣).

وإذا كانت النظرية التطورية قد فسرت تطور الدين وفقًا لتطور حاجات الإنسان، فإن النظرية الوظيفية قد غيرت التركيز من الاهتمام بحاجات الإنسان –بمفرده– إلى الاهتمام بحاجات المجتمع، فهي ترى بأهمية الدين في إشباع الحاجات الأساسية للمجتمع، وبذلك فالمجتمع يتطلب درجة معينة من التضامن الاجتماعي، والانسجام والتكامل بين أجزائه، وبذلك تعدّ مهمة الدين إشباع المتطلبات الأساسية للمجتمع كتحقيق الانتماء، والوحدة، والتضامن الاجتماعي، ويرى دوركايم أن العلم لا يمكن أن يحل محل الدين، وأن كل حياة اجتماعية هي ولا بد ذات طابع ديني، وكل دين فهو ذو طابع اجتماعي(٤).

وبذلك فإن تعريف الفلاسفة وعلماء الاجتماع للدين اختلف في كل عصر عن الآخر بحسب الأفكار الفلسفية السائدة حينها، فاختلف تعريف الدين عند المدرسة الماركسية عن التطورية وعن الوظيفية وغيرها، وفي مرحلة لاحقة توجهت تعريفات الدين إلى العلمنة، ثم كانت الحداثة متوجهة لإخفاء الدين تحت سيطرة العلم والتكنولوجيا على تنظيم المجتمع ونظرته(٥)، واستمر الأمر، كل عصر يفتح أفقًا أوسع، ويأتي بمنهج ديني جديد

(١) ينظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، ٢/٤٢٠.

(٢) ينظر: الأديان في علم الاجتماع، جان بول ويليم، ص١٢.

(٣) ينظر: المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ١/٤٠٧.

(٤) ينظر: الأشكال الأولية للحياة الدينية، دوركايم، ص٦١٥، وموسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، ١/٤٨٤، والدين من منظور سوسيولوجي، أ.د. صالح فيلالي، ص٢٣.

(٥) المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ١/٤٠٧.

منسجم مع الوضع الثقافي وتنوع المعرفة، فتعددت النظريات المفسرة للدين بين اجتماعية، ونفسية، ومعرفية، وأنثروبولوجية، وبايولوجية، وغيرها؛ ولذا قال بعض الفلاسفة: "الدين هو بناء اجتماعي وثقافي ذو معنى شديد التغير"(١)، فتعريف الدين متغير بحسب السياق الاجتماعي والفكري الذي يكون فيه.

ولكن مع هذه التغيرات تبقى للدين عدة أبعاد تحدد معالمه الأساسية –ولا يكاد يُختلف فيها–، وهي سبعة أبعاد –بالنسبة للمجتمع–: أولًا: البعد العملي (ويشمل: الممارسات، ومن بينها: الصلاة)، ثانيًا: البعد التجريبي (ويشمل: التجربة، والانفعالات الدينية)، ثالثًا: البعد السردي (ويشمل: الجانب القصصي للدين شاملًا الأساطير)، رابعًا: البعد المذهبي (ويشمل: التعاليم الرسمية)، خامسًا: البعد الأخلاقي (ويشمل: القوانين الأخلاقية)، سادسًا: البعد الاجتماعي (ويشمل: التنظيم المؤسسي للمجتمع الديني)، سابعًا: البعد المادي (ويشمل: الأبنية، والأماكن المقدّسة). وأما بالنسبة للفرد فهي خمسة أبعاد: أولًا: البعد الأيديولوجي (ويراد به: المعتقد)، ثانيًا: البعد الطقوسي (ويراد به: الممارسة الدينية)، ثالثًا: البعد الفكري (ويراد به: المعرفة الدينية)، رابعًا: البعد التجريبي (ويراد به: المشاعر الدينية)، خامسًا: البعد الاستتباعي (ويراد به: الآثار المترتبة على الالتزام بالدين)(٢).

المطلب الثاني: تعريف علم الاجتماع الديني:

سبق أن عرّفنا علم الاجتماع بأنه: "علم دراسة المجتمع الإنساني وظواهره والمؤسسات الاجتماعية دراسة علمية شاملة للأنساق الاجتماعية، دراسة تعتمد على المنهج العلمي"، وبذلك فعلم الاجتماع يدرس الظواهر الاجتماعية، وأما الدين فهو يدرس علاقة الإنسان بالقوى الغيبية، وإيمانه بها، وطاعته لها، وبهذا كان علم الاجتماع الديني يعرف بأنه: "العلم الذي يدرس وظائف الجماعات، وكيفية خضوعها وتأثرها بالتعاليم الدينية، فهو علم يدرس الترابط بين الظواهر الاجتماعية وتأثر الجماعات بالتعاليم الدينية، ومدى الترابط بين الدين والقوانين المنظمة لحياة الجماعات عامة، والجماعات الدينية خاصة"(٣)، وكذلك يعرَّف بأنه: "دراسة ظواهر اجتماعية في ميدان الدين، والعلاقات الاجتماعية للدين في الداخل والخارج، ورصد كيانات وعمليات اجتماعية تنتمي لميدان الظواهر الدينية؛ بهدف تحليل أبنيتها، والقوانين التي تخضع لها، وضبط التأثير الاجتماعي في السلوك الديني داخل المجتمع ودراسة المؤسسات الدينية والظواهر الاجتماعية داخلها، دراسة اجتماعية ترصد العلاقة المتفاعلة بين الدين والمجتمع، بالنظر في الجذور الاجتماعية للظواهر الدينية، وتتبع أثرها في البيئة والنسيج الاجتماعي"(٤)، فعلم الاجتماع يبحث في وظيفة الدين؛ من حيث دوره في إحداث التغيرات، والظواهر الاجتماعية، والصراعات التي

(١) المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ١/٤١٧.

(٢) ينظر: المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ١/٤٢٧.

(٣) علم الاجتماع الديني، د. محمد عاطف غيث، ص٤٨–٤٩، وينظر: علم الاجتماع الديني موسوعة علم الاجتماع، جوردون مارشال، ٢/٩٨٢.

(٤) علم الاجتماع الديني، الخريجي، ص١٦٦– ١٧٧.

يمكن أن تنتج على المدى البعيد، ودورها في إحداث التغييرات الدينية والمجتمعية، ويُعنى بارتباط المجتمع بالدين، ومتى تأثير الدين وتأثره بالمجتمعات، فالمجتمعات مؤثرة في شخصية الإنسان في مرحلة الطفولة وما بعدها؛ من خلال التأثيرات الناجمة عن عمليات التنشئة، والدين من أهم هذه المؤثرات المتعلقة بالتنشئة، التي تؤثر في كل فرد، سواء ولد في أسرة متدينة، أو نال قسطًا من التعليم الديني، فالدين مؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في كل أنظمة المجتمع، حتى الأنظمة العلمانية فيه. ولأجل وجود ذلك الأثر الديني على المجتمع كان ذلك دافعًا لتأسيس علم الاجتماع الديني، الذي يدرس الظاهرة الاجتماعية الدينية ويقارنها مع الظاهرة الدينية في مجتمعات أخرى، أو جماعات دينية أخرى، وبعد ذلك يكون التحليل والاستنتاج لتقرير قواعد السلوك الاجتماعي الديني الذي يؤثر في المجتمع ويتأثر به.

وبذلك يقدم علم الاجتماع الديني دراسة للظواهر الاجتماعية استنادًا إلى العلوم الدينية والعكس، فهو يعطي تفسيرات شاملة ومتكاملة؛ وذلك لأن علم الاجتماع والدين يعبران عن رؤية شاملة ترتبط بالإنسان وجودًا وعدمًا، ومن هنا كان علم الاجتماع الديني يعبر عن رؤية علمية، وموصل إلى نتائج علمية تفسر هذه الظواهر الاجتماعية(١).

المطلب الثالث: علاقة علم الاجتماع بالعقيدة:

ارتبطت المجتمعات الإنسانية بالدين ارتباطًا وجوديًّا، فلا يوجد مجتمع بلا دين، كما لا يوجد دين بلا مجتمع، واستمر وجود الدين في حياة الناس على مر العصور، ومنذ الوجود الأول للإنسان، وهي ظاهرة لا جدال فيها، بما شهدت به آثاره ورسومه في عصور ما قبل التاريخ، وبعد ذلك في العصور التاريخية فيما ترك الإنسان من كتابات تضمنت آلهته، وعباداته، وصلواته، و"قد كان لشعوب التاريخ القديم على غرار شعوب كُلّ الأرض أنظمة سلوكية، وشبكات من الاعتقاد، يشيع فيها مشاركة الآلهة في كل الشؤون"(٢).

فالأديان لها دور بارز في التكوين المجتمعي، ومن غير المرجح أن يكون قد تكون مجتمع في أي مكان بدون دور قام به الدين في هذا التكوين(٣)، واستمر وجود الدين والاهتمام به في قلب كل مجتمع تقليدي، إلى أن أقصته العلمانية، وأسقطته الثورة الحديثة؛ حيث تسببت في سقوط الأديان والانهيار الأخلاقي، وعاد الاهتمام بالدين في المجتمعات الغربية بعد ارتفاع معدل اضطراب أنماط السلوك، وبحث العلماء إذا ما كان هناك طرق تحد من تدهور الفكر الديني والأنظمة الدينية، فنشأ علم الاجتماع الديني في محاولة لضبط الأخلاق والسلوك، وإعادة تماسك المجتمع، وكان لثلة من علماء الاجتماع اهتمام بالدين؛ باعتباره أحد أبرز المحركات المجتمعية، إن لم يكن أبرزها على الإطلاق، فالدين مرتبط ارتباطًا مباشرًا بالأخلاق والتعاملات الإنسانية، ويمكن للأديان أن تُقَدِّم علومًا كونية،

(١) ينظر: علم الاجتماع الديني، د. محمد عاطف غيث، ص٣٣.

(٢) كيف نفهم الدِّين، جيب جنسن وآخرون، ص٩.

(٣) ينظر: الأشكال الأولية للحياة الدينية، دوركايم، ص٣٥٢.

فالدين هو أساس المعايير الأخلاقية، والمعايير الأخلاقية هي أساس المجتمع المنتظم المتسق، وعلى هذا فالدين أيضًا يؤمن حياة الأفراد.

وأهمية الدين في المجتمعات لم يكن محل إقرار من علماء الاجتماع الذين يؤمنون بالأديان فقط، بل حتى الفلاسفة الذين أنكروا حقيقة الأديان أقروا بأهميتها ودورها الاجتماعي الفاعل، فرأوا أن وظيفة الدين لا تقتصر على الجانب السايكولوجي والانفعالي، بل هو مفيد أيضًا على نحو وجودي، فهم يرون أن الدين صنع للبشر عالمًا مثاليًا آخر يجدون فيه الراحة والعقل، فوق هذا العالم المادي الذي ربما يعيشون فيه حياة تعسة، فالدين في نظرهم "إسقاط بشري، ومن الناحية الأساسية هو كذبة، لكنها كذبة مريحة"(١).

وربما يُبرّر هذه الظاهرة لدى البعض كون الدين يعد العنصر الأساس فيما يُسمّى برؤية العالم، أو وجهة نظر الإنسان عن العالم ووجوده فيه، ووجهة النظر هذه هي أساس لاستقرار الإنسان، واختلالها يسبب له شعورًا بالفراغ واللامعنى(٢).

والدين له دور كبير في الضبط الاجتماعي، وصنع الرموز، ومن ثم وضع سلطة للرموز فيكون لها دور في تقوية الإيمان، ويتجلى دور الإيمان بوصفه الجوهر العميق للفرد، ومركز القيم، ويعبر المؤمن عن نفسه عبر اشتراكه في أفعال دافعها الإيمان واستجابته لها؛ إذ يؤدي جميع الأشخاص هذه الأفعال بطريقة معينة حتى في ظروف معقدة ومتغيرة(٣)، وهذا من تأثير الإيمان في تحقيق الانضباط الأخلاقي، وكل ذلك موصل إلى التماسك والانضباط المجتمعي، و"قديمًا قَرر الفلاسفة أن الدين والتقوى هما أمران يدعمان الأخلاق على مستوى الفرد والجماعة"(٤)؛ فالدين يسعى لضبط الأخلاق مع تغير البيئات الاجتماعية، وبتغير البيئات الاجتماعية قد تتغير طبيعة الأخلاقيات التقليدية، ومن ثم يتغير تحقيق الانضباط المجتمعي(٥).

والمجتمعات أيضًا لها دور في تغير الدين، فالمجتمع والدين كلاهما مؤثر في الآخر، ويتبع ذلك تغيرات في المواقف التقليدية، والسلوك الديني التقليدي، فالتجمعات الاجتماعية والتعاون الاجتماعي هي القوى القائدة المسيطرة للتغير في الأخلاقيات والدين، والتغير الأخلاقي هو القوة القائدة المسيطرة للتغير الديني(٦).

والدين ليس بالضرورة أن يكون اعتقده الإنسان عن فهم واقتناع، بل الغالب في الناس هو التقليد ومحاكاة الرموز الاجتماعية؛ ولذلك يقال: الناس على دين ملوكهم(٧)؛ لأن الناس في الغالب لا يمتلكون عمومًا معتقدات

(١) كيف نفهم الدِّين، جيب جنسن وآخرون، ص٢١.
(٢) ينظر: الأشكال الأولية للحياة الدينية، دوركايم، ص٣٥٢.
(٣) المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ١/٤٣٠.
(٤) كيف نفهم الدِّين، جيب جنسن وآخرون، ص٢١.
(٥) ينظر: التطور البيولوجي، ايكارت فولاند، ص١٠٤.
(٦) ينظر: التطور البيولوجي، ايكارت فولاند، ص١٠٤
(٧) كيف نفهم الدِّين، جيب جنسن وآخرون، ص٢١.

دينية، لأنهم فكروا مليًا في الدليل على الوجود الفعلي لفاعلين من نوع خاص خارقين للطبيعة، أو على عدم وجودهم[1]، بل بالأحرى هم يجدون أنفسهم مكتسبين لهذا الدين؛ لوجود قوى فاعلة مؤثرة عليهم من خلال النشأة، والبيئة، وغيرها، وذلك مصداقًا للحديث: "فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه".

ويعد الدين محركًا فاعلًا للتفكير بالقوى المحيطة بالإنسان، ومصدرًا مهمًا للتطلع إلى الإيمان، ودافعًا إلى العبادة، ومعززًا للتفاعل الاجتماعي، وعلم الاجتماع الديني يمثل المعرفة المطلوبة للوصول إلى تفسير الظواهر الاجتماعية، وسلوك الجماعات الدينية أو غيرها، فعلم الاجتماع الديني يدخل ويرتبط بعلم العقائد الدينية، والإيمان بالله والنبوات، والإيمان باليوم الآخر، وإقامة الطقوس التعبدية، وكل هذه العلوم الدينية ترتبط بحركة الإنسان، ومقاصد وجوده، ووظيفته على الأرض، فدور الدين ليس محصورًا في حث الناس على الأخلاق الحسنة، أو النهي عن الأخلاق السيئة، أو ضبط المجتمع، بل إنه يمنحهم الأمان النفسي، والاستقرار بمعرفتهم لسبب وجودهم، ويشبع حاجاتهم الروحية لقوى غيبية تشعرهم بالأمان والعدل في هذا العالم، ويزودهم بمكانهم في هذا العالم؛ فلذا "حاجة الإنسان إلى الدين هي أعمق من حاجته إلى العلم"؛ لأن إيصال الإنسان لمعنى لوجوده في هذه الحياة، والإجابة عن تساؤلاته في الأصل والمصير الإنساني؛ هي من أهم احتياجات الإنسان الروحية، والتعلق بالدين والظاهرة الدينية هي محاولات الإنسان للتوصل إلى المعنى، وهذه الحاجة أدت إلى ظهور الخيال الإنساني كمشارك في القضايا الدينية ومنتج لها، فالإيمان بوجود القوى الغيبية كان قد بدأ عند الإنسان في التفكير في عالم الأموات، وعالم الأحلام والرؤى يوحي إلى الإنسان بوجود قوى غيبية تدفع الإنسان للخوف واللجوء إلى ما يجلب له الطمأنينة؛ ولذا فإن إيمان الناس الديني يشبع حاجاتهم إلى المعنى والسلطة والعلاقات الاجتماعية[2].

والدين له دور في إشباع حاجات الفرد والمجتمع للوحدة والروح الجماعية، والقوة المشتركة التي تشعر بالأمان والدعم، فلا يوجد مجتمع لا يشعر بالحاجة إلى الدعم والمساندة، وإلى وجدان وأفكار جماعية تعطيه وحدته وشخصيته المميزة، وهذا البناء المعنوي لا يمكن إنجازه إلا في الصلوات الجماعية، والطقوس الدينية المشتركة، والاحتفالات –التي يجتمع فيها الأفراد مع بعضهم البعض–؛ مما يحقق الوحدة الدينية، والانتماء للجماعة، وغيرها من المصالح المجتمعية، محققة في آخر الأمر التماسك المجتمعي، والبناء الحضاري.

وللمعتقدات الدينية تأثير على النشاطات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للجماعات المختلفة من الناس، فالدين جزء من المجال الأيديولوجي للمجتمع، وبخاصة إذا كان مساهمًا في المحافظة على النظم السياسية والثقافية السائدة في المجتمع. وقد تكون مساهمة الدين في تنظيم المجتمع والمحافظة عليه مباشرة أو غير مباشرة، فتكون مباشرة بإقناع الناس بأن النظام السياسي أو الاقتصادي السائد هو منزل من الإله، وأن أية محاولة لتغييره تعدّ جُرمًا، وتكون غير مباشرة في حال الأزمات والدعم الروحي والنفسي للإنسان وغيرها، فالدين يقوم بدور مهم

(١) المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ١/٤٣٠.

(٢) المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ١/٤٣٤.

في المحافظة على البناء الاجتماعي، ويؤثر على النشاطات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية في المجتمع.

وكذلك الدين يشبع إحدى الحاجات للإنسان وهي الحاجة للسلطة، فالسلطة صفة متأصلة في العلاقات الإنسانية، وهذا وحده يعطي السلطة نوعًا من القداسة، وهي على الأقل تحدد طابع أي مجتمع، فالسلطة الاجتماعية هي فرصة إجبار الناس على القيام بالأشياء، ويجب أن تتضمن السلطة المواجهة، أو انعدام المساواة، أو صراع المصالح، أو الجبر، أو حتى العنف، والسلطة الاجتماعية لا بد أن تشمل الإقناع، والإجماع، والموافقة، ومن أنواعها: السلطة الدينية، والسلطة الرمزية، فالناس دائمًا ما يساعد بعضهم بعضًا للحفاظ على أمانهم الأنطولوجي أو استعادته، ويمتلك الجميع قدرًا معينًا من السلطة الرمزية على كل فرد آخر، وكل شخص قادر على إشباع الرغبة في الأمان الأنطولوجي فهو يمتلك سلطة رمزية، فمن كانت لديه قدرات تعزيز الأمان الأنطولوجي، أو تقويته، أو استعادته من خلال الحقائق والمعاني الخارقة لقدرة الإنسان؛ يمكنه استخدام السلطة بأنواعها، والسلطة الدينية غالبًا ما تسند إلى شخص ما يمتلك بالفعل قدرًا كبيرًا من السلطة الاجتماعية، فالسلطة الدينية لها دور في إقامة الشعائر الدينية والضبط الاجتماعي، وقد تستخدم السلطة الدينية أحيانًا لإجبار الناس على القيام بأشياء، بالرجوع إلى حقائق أو معانٍ لا يدركها إلا الخواص أو الرموز الغيبية التي تتجاوز ما يُظن عادة أنه إنساني، والسلطة الدينية موجودة بسبب حاجة الإنسان إلى الاستناد إلى القوة ووجود تقديس لرؤية عالمية، ومن ثم تلبية الحاجة إلى الأمان الأنطولوجي، وهذا ما يعني أنها ليست مقتصرة على فضاء خاص، فالسلطة الدينية متجذرة في الحياة اليومية، ووثيقة الصلة بها، وتظهر في مجموعات معقدة، وهي متشابكة مع السلطة الاجتماعية، والجنسية، والسياسية، وغيرها(١).

ويمكن للقلق الناتج من فقدان الأمان الأنطولوجي أن يحفز الناس على إسناد السلطة الدينية إلى متخصصين، أو أشخاص ذوي قدرات يتولون السلطة الدينية، فمن يقدر على تحقيق هذه الحاجة بوسائل دينية تتجاوز العيوب البشرية المعتادة يمتلك هذا النوع من السلطة، والسلطة دينية غير مستقرة، ولا يمكن التنبؤ بها، مثلها مثل أي صورة من صور السلطة، ويمكن أن تتحوّل إلى أنواع أخرى من السلطة(٢).

وبما سبق ذكره يتبين مدى صلة المجتمعات بالعقائد والأديان، وأثر كل منهما على الآخر.

الخاتمة:

بعد دراسة العلاقة بين علم الاجتماع والعقيدة الإسلامية، ووصف القوة التأثيرية لعلم الاجتماع على العقيدة الإسلامية والعكس، تبيَّن أن العلاقة بينهما وثيقة ومتكاملة إذا نُظر إليها في ضوء التصور الإسلامي الشامل للإنسان والمجتمع والحياة، وقد أظهر البحث أن علم الاجتماع بوصفه علمًا إنسانيًا لا يمكن أن يكون محايدًا قيميًا،

(١) ينظر: أكسفورد، ٣٠٤/١، والمرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ٣٠٩/١.

(٢) ينظر: المرجع في سوسيولوجيا الدين، بيتر كلارك، ٣١٩/١-٣٢٠.

إذ يتأثر بالمنطلقات الفلسفية التي تأسس عليها، الأمر الذي يجعل من الضروري إعادة قراءته من زاوية عقدية إيمانية تحفظ توازنه واتزانه المعرفي، ولذلك خرج البحث ببعض النتائج:

١- تبين لنا من خلال البحث أن الأفكار هي التي تكوّن المجتمعات، وتجعلها متمايزة عن غيرها، ومترابطة فيما بينها، وتجعل لكل مجتمع مقدسات مختلفة عن غيره من المجتمعات، والأفكار والمبادئ التي يبنى عليها مجتمع لا تنطبق ضرورة على مجتمع آخر.

٢- نشوء الأفكار وتطورها لا يتم في تتابع منطقي ثابت، وليس له طريق مستقيم منذ بداية العقل الإنساني، بل تنشأ وتتطور بالتدريج وعن طريق التتابع المنظم، فتنشأ الفكرة عن عقل الفرد، ويتم إيصالها عن طريق اللغة ومن ثم يكون التكرار والانتشار، وبعض الأفكار تصبح مسلمات؛ من حيث إنها انتشرت وألفها الناس، ثم نشأ عليها جيل جديد، وأصبحت لديه من المسلمات التي لا خلاف فيها.

٣- العقيدة الإسلامية له دور كبير في الضبط الاجتماعي، وصنع الرموز، ومن ثم وضع سلطة للرموز فيكون لها دور في تقوية الإيمان، ويتجلى دور الإيمان بوصفه الجوهر العميق للفرد، ومركز القيم، ويعبر المؤمن عن نفسه عبر اشتراكه في أفعال دافعها الإيمان واستجابته لها؛ إذ يؤدي جميع الأشخاص هذه الأفعال بطريقة معينة حتى في ظروف معقدة ومتغيرة.

٤- التفكير الاجتماعي يشكّل جزء من التفكير الإنساني والعقيدة الإسلامية تنظم وتهيأ وترسم الطريق السليم للتفكير الإنساني، حتى يتحقق له السلام في الحياة الدنيا والآخرة.

٥- العقيدة الإسلامية تشكل الإطار المرجعي الأسمى لفهم الإنسان والمجتمع، فهي التي تحدد غاية الوجود الإنساني، وتوجّه السلوك الاجتماعي نحو العبودية لله وتحقيق مقاصد الشريعة.

٦- علم الاجتماع الغربي نشأ في بيئة فكرية وضعية، فصلت بين الدين والحياة، مما انعكس على مناهجه وتفسيراته للظواهر الاجتماعية، فغابت عنها الرؤية الإيمانية والأخلاقية.

٧- ثمة علاقة تكاملية بين العقيدة الإسلامية وعلم الاجتماع متى ما أُعيد بناء العلم على أساس التوحيد، بحيث يُستفاد من أدوات التحليل الاجتماعي مع ضبطها بالمنهج العقدي الإسلامي.

ولذلك يخرج البحث ببعض التوصيات ومنها:

١- ضرورة إدماج البعد العقدي في الدراسات الاجتماعية في الجامعات والمعاهد الأكاديمية.

٢- تشجيع الباحثين على إعداد دراسات مقارنة بين النظريات الاجتماعية الغربية والتصور الإسلامي للإنسان والمجتمع.

٣- العمل على تأسيس مراكز بحثية تُعنى بالعلوم الاجتماعية من منظور إسلامي.

٤- الدعوة إلى صياغة مناهج تعليمية تُبرز أثر العقيدة الإسلامية في بناء المجتمع وتنميته.

٥- تعزيز التعاون بين المتخصصين في العقيدة والعلوم الاجتماعية لإثراء الحقول المعرفية التكاملية

المصادر والمراجع:

الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصـــر: محمد عاطف غيث، دار الكتب الجامعية، الإســـكندرية، ط١، (١٩٧٢م).

التوقيف على مهمات التعاريف. زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري. (المتوفى: ١٠٣١هـ). ط١، عالم الكتب (٣٨) عبد الخالق ثروت: القاهرة، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

موسوعة الفلسفة. عبد الرحمن بدوي. ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، (٢٠١٩م).

قواعد المنهج في علم الاجتماع. إميل دوركايم. ترجمة محمود قاسم والسيد محمد بدوي، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية: (١٩٨٨م).

مقدمة إلى علم الاجتماع. كين براون. ط٥، الجمعية السعودية للدراسات الاجتماعية.

اتجاهات نظرية في علم الاجتماع. عبد الباسط عبد المعطي. ط١، الدار العربية للنشر: (١٩٨٠م).

مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن بن خلدون. تقديم البروفسور يوهان كريستوف بيرغل، ط١، شركة الوراق للنشر المحدودة، لندن، بغداد

علم الاجتماع من النشـــأة إلى الأزمة. أحمد عماد الدين خواني. *مجلة العلوم الاجتماعية والإنســـانية*، جامعة باتنة، العدد (١٢)، جوان (٢٠٠٥م)، بحث تطور علم الاجتماع الغربي من النشـــأة إلى الأزمة، أحمد عماد الدين خواني.

دليل أكســـفورد للفلســـفة. هوندرتش. ترجمة نجيب الحصـــادي، ط١، المركز الوطني للبحث والتطوير، فيلوكوم، (٢٠١٩م).

النظريات الحديثة في علم الاجتماع. جورج ريتز وآخرون. دفقه ذيب الدوســـري وآخرون، ط١، مكتبة جرير،: (٢٠٢١م).

التفكير ســوســيولوجيا. زيغمونت باومان وتم ماي. ترجمة حجاج أبو جبر تقديم: ســاري حنفي، ط١، ابن النديم للنشر والتوزيع: (٢٠٢٣م).

المعرفة الســوســيولوجية وســوســيولوجيا المعرفة بين العقل والتجربة الحضــارية. د.دناقة أحمد. جامعة طاهري محمد، بشار، الجزائر. المجلد(١)، العدد (١)، فبراير (٢٠١٨م).

فلسفة الوجود. نقولا حداد. مؤسسة هنداوي: (٢٠١٤م).

علم اجتماع الفلســفات. راندال كولينز. ترجمة فريق جســور للترجمة مراجعة د. خليفة الميســاوي، ط١، جســور للترجمة والنشر، بيروت، (٢٠١٩م).

علم النفس الاجتماعي. ب، بورشنيف. (٢٠١٧م)، ط١، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر: دمشق، سوريا

الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، ط١، دار الراية: (١٤١٢هـ).

بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي. تحقيق: مجموعة من تحقيقين، ط١، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف: (١٤٢٦هـ).

معارج القدس في مدراج معرفة النفس. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. (المتوفى: ٥٠٥هـ). ط٢، دار الآفاق الجديدة: بيروت، (١٩٧٥م).

كتاب العين. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري. (المتوفى: ١٧٠هـ). تحقيق: د مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

المنجد في اللغة. علي بن الحسن الأزدي. المحقق: د. أحمد مختار عمر، د. ضاحي عبدالباقي، ط٢، عالم الكتب: القاهرة، (١٩٨٨م).

المرجع في سوسيولوجيا الدين. بيتر كلارك طبقات الشافعيين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. تحقيق: د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية: (١٤١٣هـ).

كيف نفهم الدِّين، جيب جنسن وآخرون، ترجمة: عبد الأمير حميد، مراجعة د. عبد الستار جبر، ط١، ٢٠٢٢.

الأديان في علم الاجتماع. جان – بول ويليم. ترجمة: بسمة علي بدران، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع: (١٤٢١هـ).

الأشكال الأولية للحياة الدينية. دوركايم. ترجمة رندة بعث، ط١، المركز العربي للأبحاث، بيروت، (٢٠١٩م).

الدين من منظور سوسيولوجي، ا.د/ صالح فيلالي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة. العدد (٨)، ديسمبر (٢٠١٣م)، *مجلة علوم الإنسان والمجتمع*، جامعة بسكرة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد(٨)، (صفر ١٤٣٥هـ/ ديسمبر ٢٠١٣م).

علم الاجتماع الديني. الخريجي، رامتان. جدة، ط٢، (١٤٣٠هـ).

التطور البيولوجي. ايكارت فولاند. ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، ط١، المركز القومي للترجمة: (٢٠١٥م).

موسوعة علم الاجتماع. جوردون مارشال. ترجمة محمد الجوهري واخرون، ط١، المجلس الأعلى للثقافة: (٢٠٠٠م).

المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية. الدكتور جميل صليبا. دار الكتاب اللبناني: بيروت، لبنان، (١٩٨٢م).

لسان العرب. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى. (المتوفى: ٧١١هـ). ط٣، دار صادر: بيروت، (١٤١٤هـ).